حماقة قلب



العنوان: حماقة قلب

عدد الصفحات: 100

قياس الصفحات: 15 × 22

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
2019

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب
بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أو الالكترونية
إلا بإذن خطي من الناشر



حماقة قلب

تأليف

بيداء الصالح

دقَّقها لغويَّاً

محمد تكلة

بسمة أطرش

دار اسطنبولي
للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

أعرف أنَّك لي و ستبقى أنتَ قدري

ومكتوبٌ على قلبكَ اسمي

لكنَّكَ مصابٌ بعسرِ القراءة



إلى اللُّغة العربيَّة التي لطالما خانتني

عندما احتجتُ إليها



إلى العظيمة التي لطالما آمنت بقدراتي، وفعلتْ

لأجلي المستحيل، إلى أمِّي التي ماتت من بعدها في

عيني كلُّ النساء، أنتِ أمِّي والأخريات بقاياكِ



العنوان	رقم الصفحة
الإهداء	5
من أوَّل حرف	9
خطيئة الحبِّ	18
قلوب وجيوب فقيرة	31
إن رددتُ مالك، ستردُّ لي كرامتي	54
كان الحبُّ جميلاً	76


من أول حرف

«هناك حبٌّ من أوَّل نظرة،
وهناك حبٌّ آخر من أوَّل حرف».

عبد الله المغلوث

كان يربطُ ربطة العنقِ متلهفاً للقاء الأول بعد أشهرٍ من المراسة على النت.

عندما دقَّ هاتفتهُ ركض إلى الهاتف كالمجنون، وكان قلبهُ يدق عوضا عن هاتفه، رفع الهاتف تأمَّل اسمها بكلِّ شوقٍ وحنين وردَّ بسرعة قال لها:

- هل اشتقتني!
- أظن هذا.
- حسناً سوف أربطُ ربطة العنق، ومسافة الطريق وأكون قد وصلت، وأنتِ؟
- إنني أجهز نفسي ولم يبقَ غير «قلم الحمرة».
- ما أجملها عليكِ، أظنُّها سوف تجعل الكلَّ يغارُ من مكانهاعلى شفتيكِ.
- شكراً على هذا الإطراء، لكن...
- لكن ماذا؟
- لا أظنّ أنَّها سوف تعجبك!
- لماذا؟
- هيا الآن، اذهب وارتدي ربطة عنقكَ على مهل، ولكن لا تُحكمها كثيراً فأحياناً «تخنق».

وقطعت الخط، صمتَ هو لثوانٍ، وكأن أحداً قد سكب على رأسهِ دلواً من الماء البارد، وأفاق من صمتهِ ودهشتهِ فجأة، وقال في داخله:

ماذا تقصد بقولها «على مهل» و«تخنق» لا أعرف، لا بدَّ أنها تمزح، فهي تُكثر من المزاح الجدِّي في كلِّ أحاديثها، عندما أراها سوف أسألها عن كلِّ شيءٍ يجول في خاطري منذُ أول رسالة بيننا.

كم هي غريبة، فاتنة، شهية، كلماتها تُغرقكَ وكأنَّها تُعدُّ وصفتها السحرية، وتضيفُ قبلتها المجنونة لتجعل كلَّ شخص يقرأ كتاباتها المجنونة المُبهَمة يغرق وكأنهُ قد سُكِرَ لمدةِ ألفِ عامٍ في حبها، وهو لم يحتسِ منها أيَّ شيء، ولا يعرف شكلها وماهيتها حتَّى.

كان على عجلٍ وكأنَّهُ يريد أن يصعد في صاروخ ليصل إليها ويستغلَّ في مناظرتها كلَّ لحظة، يتمنَّى أن يمتلك آلة الزمن ليكونَ أمامها في ثوانٍ، ويصل لعندها ويذهب متَّى يشاء.

انتهى من ارتداء لباسهِ بكلِّ أناقة رقَّاويَّة، وكأنَّهُ سوف يُعيَّن رئيساً على الحبِّ، أو كأنَّ اليومَ ليس اللقاء فقط، كأنَّها ليلة زفافهِ، وأخذ يضع كلَّ عطر فرنسا في قارورة ويرشُّ منها على رقبتهِ –التي بانت فيها عظمة الترقوة بشدة– وثيابه، وكأنَّهُ يستحمُّ في باريس تحت برج إيفل بشلَّالات العطر الأرقى في العالم، وسرَّح شعرهُ بطريقة آسيويَّة مُغرية، أحكم وثاق ربطة عنقه، وارتدى معطفهُ المخملي الأسود الطويل ووضع منديلاً أحمر على سترتهِ ليبدو بآخر أناقة وكأنَّهُ أحدُ نبلاء أوروبا، استغرق في تجهيز نفسهِ أكثر من ثلاث ساعات، وكان الكلُّ يقول إنَّ النساء تقول لكَ خمس دقائق وبالتدريج تصبح خمس ساعات، لكنَّهم هكذا دائماً عند المصالح ينافقون، الرجال يحسبون النساء تتزين لإغرائهن، لكنَّهن لا يعلمن أنَّ الرجال دائماً يخرجون متأنقين لإغواء أكبر عدد من النساء. خرج وكأنَّهُ لا يمشي على الأرض، خرج بقلبٍ حلَّق ووقع في جيبها، وجسدٍ يشتعل يريدُ اللقاء، وعينين جائعتين للقاء، وفم جائع للكلام مع من عشِقها عبر حروفها فقط.

وهل من الغباء أن تعشق حروف شخصٍ وصوت شخص لم ترَه ولو لمرَّة واحدة في حياتك؟

وصل إلى المقهى المتَّفق عليه، ودخل يُناظر الوجوه إيَّاهن تكون أنا يا ترى، أنا أعرفهُ من خلال صوره التي كان يرسلها إليَّ، لكنَّهُ لا يعرف منِّي إلاَّ حروفي المجنونة وصوتي الكاذب، دخل وهو ما يزال يفترس الوجوه يبحث عني، يُنصت بأذنيهِ اللتين تميزان صوتي من بين جميع الأصوات، قال في نفسهِ أظن أنَّها لم تصل بعد، وعليَّ ألاَّ أتَّصل بها الآن لكي لا أظهر بمظهر المُتلهِّف. لا بدَّ أن أرتدي سترة الكبرياء رغم حبِّي لها ولحروفها وعلاقتنا القوية عبر الرسائل الإلكترونية والصوتية، لكن عليَّ أن أعترف بهِ لها الآن. لأنَّ الكتابة تُعطي لكلمة (أحبُّك) شعوراً بارداً، لكن عندما تعيش الموقف والكلمة والنظرات والتأملات والأحلام والمشاعر التي تجمعها هذهِ الكلمة تشتعل فينا حرارة الحبِّ.

انتظر قرابة الساعة وكلَّما دخلت امرأة إلى المقهى افترسها بنظراتهِ ويأخذ يتفحصُّها وكأنَّهُ رجل ذو خلق بذيء، بعد حرقة الانتظار قرر الاتصال بي وأن يدوس على كبريائهِ بحِجَّة أنَّهُ سوف يسألني إن كنتُ أعرف المقهى أو أضعتُ الطريق، بعد تردد عميق الحبّ كان قد طلب الرقم من الهاتف باللاوعي وأخذ يرنُّ ويرنُّ ولا أحد يردُّ، تملَّكني الخوف فجأة بأنَّها لن تأتي؛ لكنَّني أخذتُ أشرب قهوتي التي قد بردت، وأنا أختلق لها الأعذار.

إنَّ الطريق مزدحم، لكن ليس لساعة كاملة لا لم يحدث، نحنُ في سوريا ولسنا في طوكيو.

إنَّ التغطية ضعيفة، لكن ليس لساعة كاملة، معقول أن تضعف «النت» لساعة لكن الشبكة لا.

أمعقولٌ أنَّه قد حدث لها أمر طارئ؟ لكن بإمكانها إرسال أيِّ رسالة اعتذار على الأقلِّ.

وبعد تفكير اتَّصلتُ مرَّة أخرى ولم يردَّ عليَّ أحد، فاستشطتُ غضباً وأحسستُ أن الدخان قد خرج من أذني مُصدِراً صوتَ قطار سريع جائر، لم أعد اتحمَّل هذهِ اللاَّمبالة والاستهتار وعدم المسؤولية، هل تحاول ترويضي من أوَّلِ لقاءٍ وفرضَ شخصيتها؟ لكنها فارضة شخصيتها بالفطرة، ما هذهِ الأفكار والكلمات التي أتفوه بها؟ لا بدَّ أن يكون هناك أمرٌ أخَّرها لو لم تُرد المجيء لقالت لي، لأنَّها جريئة في كلِّ شيء.

قرر أن يفتَح «الفيسبوك» ليرى ماذا فيهِ، ليضيِّع الوقت في الانتظار دون أن يشعر، وإذ به يراني متَّصلة منذُ دقائق، وقد وضعتُ منشور كتبتُ فيهِ «إلى اللقاء»، هو فهمها أنَّني في الطريق إلى لقائهِ، لكنِّي كنتُ أقصد إلى اللقاء «الأبديّ».

انتظرني أصبحت الساعة الحادية عشر مساءً ولم أحضر، قد نفد صبرهُ، والحلم قد فقد صبرهُ والحبُّ لم يبقَ لديهِ أي رشَّة من الصبر أبداً، اتَّصل بي رنَّ الهاتف ورنَّ وبعد دقائق أجبتُ جائهُ صوتي واثقاً طبيعيّاً وكأنَّني لم أفعل معهُ أي شيء ولم أخلف موعداً معهُ أبداً، وفي أوَّل لقاء بعد مراسلة الأشهر أجبته:

- مرحباً.
- مرحباً، أين أنتِ؟
- في البيت أشاهد التلفاز.

صُدم من هذهِ الكلمات، هو ضيَّع كلَّ يومه يجهِّز نفسهُ ويُحضِّر حواراتٍ في مختلف المواضيع ويغرق بالعطر والطيب والحبِّ والأناقة غير العادية لأجلي، ويعدُّ الدقائق لأجلي ويرتشف مرارة قهوتهِ السادة لأجلي، وأنا أُشاهد التلفاز، وأقولها لهُ بكل برودة وهو يشتعل، وتبخَّرت الكلمات واحترقت الجُمل، واختفتْ اللُّغةُ من بين شفتيهِ، وبقيَ صامتاً على الخطِّ لدقائقَ مصدوماً بقسوتي، وسلوكي الحقير هذا معهُ، هو الذي عشق حروفي لحدِّ الهوس، وحفظ كتاباتي وشعري عن ظهر قلب، حفظها أكثرَ من اسمهِ حتَّى.

يقول لي إنَّه عشقني من أوَّل منشور لي أتحدَّث فيه عن الحبِّ، الذي كتبتُ فيه: «الحبُّ هو ذاك الطفل المُدلَّل الذي يأتي بعد سنين انتظار طويلة بعد جهد، بعد حزن وألم، بعد تأمُّل، وعندما يأتي يُذهل عقلك الصغير بابتسامة من ثغرهِ الكاذب، ويُسكرك في النشوة وشفتاك لم تَقبلِ الخمر يوماً، الحبُّ كقطعة حلوى لذيذة شهية تعجنها بلهفة وشوق تنتظر أن تُخبز بكلِّ حنين وتخرجها من الفرن بكلِّ عشق وكأنَّك تراقص عشيقتك في صالة خافتة الإضاءة على ألحان سحرية، تخرجها تشتهيها كاملةً لتقبِّلها بشغفٍ القبلةَ الأولى، ولكنَّها سرعان ما ستحرق شفتيك سريعاً وتبقى تداوي جراح الحب بمراهم الخيبة وترميم الحياة».

نعم بهذهِ الكلمات خطفتُ لبَّ كثيرين وليس هو فقط.

أفاق من صمتهِ بصوتي على الطرفِ الثاني من الخط:

- ماذا جرى لك؟
- أنتِ من تحسبين نفسك، لماذا لم تأتي؟
- أنا؟

وبدأ بالصراخ:

- نعم أنتِ! هيا أجيبي!
- آسفة.
- آسفة! وأين أصرفُ هذهِ الكلمة؟
- أنا حقَّاً لا أستطيع أن أحضر.
- لماذا؟ أرجوكِ أعطني سبباً واحداً أُبرِّدُ به ناري.
- لدي أسبابي الخاصَّة.
- أسبابك! إذن لماذا وافقتي على الموعد؟ كان عليكِ أن ترفضي أو تعتذري.
- حقَّاً لم أستطع المجيء.
- لكنَّك تعرفين أنَّني أُحبُّكِ.
- لا تقل هذهِ الكلمة.
- لكنِّي أُحبُّكِ وأنتِ كذلك، أين ذهب حبُّكِ لي؟
- حبي لك؟
- نعم.

- لكن من أخبرك أنَّني أُحبكَ؟
- أنتِ أخبرتني.
- لا، لا تقل على لساني ما لم أقل.
- أتمزحين؟ إذاً ما هو نوع علاقتنا؟
- عابرة، أقصد صداقة عابرة!
- صداقة؟ لكنَّ كلامكِ السابق ورسائلكِ ومحادثاتنا واتصالاتنا... لا تقولي أن ما بيننا ليس بحبٍّ.
- أبداً ليس بحبٍّ.
- ماذا تقولين؟ هل هذا مقلبٌ سخيف؟
- مطلقاً.
- إذاً؟
- هذهِ حقيقة، أنا لم أقل بأنَّني أحبُّكَ.
- اصمتي، ماذا تقولين؟ أرجوكِ لا تمزِّقي ما بقيَ عندي من شوقٍ! أرجوكِ!
- أعتذر، أنا لم أحبَّكَ قطُّ، ولا أعرف كيف فسَّرتَ علاقتنا هكذا.
- ماذا يحصل معكِ؟ أنتِ لستِ (وهم) التي أعرفها أبداً! هل أنتِ في ضغوط باللهِ عليكِ؟ أنتِ... لا أفهم ماذا يجري!
- لا، أنا مرتاحة وبخير، ولم يحدث لي شيء.
- إذاً؟
- إذاً ماذا؟
- أقول لكِ إنَّني أحبُّكِ منذ أوَّل منشور لكِ، منذ أوَّل رسالةٍ كانت تحملُ «مرحباً»، منذ أوَّل مكالمةٍ عشقتُ صوتكِ، أدمنتُ هواكِ وحروفكِ، حتَّى أصبحتُ أقرأ المحادثات بيننا مئات المرات، بل حفظتها عن ظهر قلب، ارحميني أرجوكِ! لماذا هذهِ القسوة منكِ؟
- أنا لستُ قاسية، هذا قَدر الحياة.
- لا بل أنتِ أقسى.
- أنا لم أفعل شيئاً، ولا أدري ما بك، لم أقل لك اعشقني، أحبَّني، ولم أجبرك على

أي شيء، أنتَ من أوهمتَ نفسك بكلِّ هذا الكلام وبدأت تنسج قصوراً من الأحلام، لكن لا بدَّ أن تُعيد بنائها.

- بربِّكِ ماذا يحصل؟ لماذا تغيرتِ فجأة هكذا؟ لم أعد أعرفك، وأحسبُ أنني لم أعرفكِ يوماً، ماذا فعلتي بي؟
- يا ابن الناس لم أفعل بكَ شيئاً! اسأل مشاعرك، أنا لم أفعل أيَّ شيء، أنتَ كالمثل القائل: «كذبَ الكذبة وصدَّقها».
- أنا.... حسناً وماذا الآن؟
- ماذا؟
- لمَ لم تأتِ لتريني على أرض الواقع مرَّة على الأقلِّ، أسمعُ صوتكِ مرَّة واحدة، أُناظر عينيكِ وشفتيكِ وحركات يديكِ يا «وهم»! أحلفُ لكِ أنَّني أحبُّكِ، ألم تعرفي هذهِ الكلمة يوماً؟
- ماذا تقصد؟
- ألم تجرِّبي قولها؟ شعورها؟
- هذا ليس من شأنك.
- ماذا عن كلِّ المنشورات التي تتحدَّثين فيها عن الحبِّ؟
- وما بها؟
- هل أنتِ عاشقة؟
- نعم.
- لمن؟
- لحياتي فقط.
- ألم تعشقي أحداً غيرك!
- لا، ولا أريد.
- لماذا؟
- هذا شأني الخاص، ولا يحقُّ لكَ أن تسألني أو تتدخَّل بشؤوني.
- لماذا انفعلتي؟
- لم أنفعل.

- لا شكَّ بأنَّكِ كاذبة.
- عفواً؟
- كاذبة بالحبِّ، تكتبين ما تفقدينه، لأنَّ الكتَّاب يُعَوِّضُون النقصَ لديهم والحرمان بالكتابة، ففاقدُ الحبِّ يكتب عنهُ ويتغزَّل بهِ وكأنَّهُ على علاقة مع الحبِّ ذاته، وليس مع شخص أو أشخاص يحبُّهم، والجائع يكتب عن الطعام، والفقيد يكتب عن ولدهِ أو زوجتهِ أو أمِّهِ أو أبيه، أو حتَّى الحبيبة، والحزين ينشد الفرح.
- وماذا بعد؟
- من خلال ما كنتِ تقولين في محادثاتكِ ومنشوراتكِ ومكالماتكِ، أتظنينني مخبولاً أو شخصاً أبله؟ تكلَّمي.
- أبداً.
- أبداً ماذا؟ أنتِ سيئة بكلِّ معنى الكلمة، فتاة مخادعة لعوب.
- عفواً، لا أسمح لكَ بقول هذا الكلام عني.
- لا، عليك أن تسمحي لي، أريد أن أقول لكِ وبكلِّ فخر هذا: لعوب، حقيرة، حمقاء، لكنِّي أحببتُكِ يا لِغبائي.
- أضحكتني، لكن أريد أن أقول لكَ كلمة يجب أن تعلِّقها كالحلقة في أُذنك...
- نصيحةٌ من لعوب، نكتة الموسم.
- لا تحبَّ وتغرم وتعشق شخصاً لم تره أو تعرفهُ أو كلمتهُ على الواقع، لأنَّهُ باختصار «وهم»، نعم، وهمٌ قاتل، يجعلك تعاني أكثرَ ممَّا تعتقد، سررتُ بمعرفتكَ، وداعاً.

أقفلتُ الخط ومسحتُ الرقم وأكملتُ مشاهدة التلفاز بالبرود واللامبالة التي اعتدتُ عليها. برود، لأنَّني ملكةُ البرود وأُمنح «أوسكاراً» على ذلك.

متبلدة المشاعر، فاقدة للإحساس والحب، لكن وراء كلِّ شخص حزين ملحمةُ حبٍّ، معركة طاحنة بين مشاعرهِ والرفض بين أشواقهِ والبرود المُقابل من الطرف الآخر. أنا بالتأكيد لدي أسبابي الخاصة وظروفي، فلا تحكم على تصرُّفات أيِّ أحد حتَّى تعرف الظروفَ والضغوطات التي مرَّ بها، لم نسمع عن إنسان خُلِقَ من دون مشاعر، أو لا تغلب عليه العاطفة مطلقاً، كُلنا بشر، والبشر معجونون من عجينة المشاعر المُتبَّلة ببهار الحبِّ، والمخبوزة في فرن عِشقيٍّ يسمى العاطفة، لكن بغباء البعض دُمِّرت عاطفةُ الكثير، بل

بعضهم دخلوا حالة اكتئاب مطلق وصراع مع المشاعر، فيصبح الشخص كالمجنون تارةً يبكي بحرقة تُقطِّع القلوب، لا بل حتى الحجر، وتارة تراهُ يتمايل كفراشة جميلة مغرورة في السماء بألوانها الجذَّابة، كوردة في أوَّل الربيع برائحتها الجذَّابة تُسكر العقول، لكن فجأة يأتي من يقطفها ويغتصب تويجاتها واحدةً تلو الأخرى، ويقطِّع أوراقها بوحشية ويرميها تعانق أقدام المارَّة على الطريق، وبما أن لديك سبباً لتكره شخصاً ما، فلديك سببٌ مشابهٌ لتحبَّه.

خطيئة الحب



أصابكَ عشقٌ أم رُميتَ بأسهمِ فما هذهِ إلا سجيتُ مغرمي

حسن المرواني

كما يصفني أصدقائي في ذات يوم بأنَّني رقيقة ذات عيون حالمة بنية ، مرهفة الإحساس، وكما يقول لي الجميع إنَّ كتاباتكِ داخلها روح، لديكِ إحساس سحريٌّ يجذب ، فلم يكن أحدٌ يقرأ أشعاري وخواطري ومن دون أن يجد نفسهُ يحاول السباحة في بحر حبِّي يخشى الغرق، لستُ قاسية، بل الحياة ربَّتني على ذلك، ولم أدّعِ البرود يوماً، لكنَّ قلبي اعتزل المشاعر.

لا أعرف! هل هو غبائي أم خباثتهُ؟

أم السبب هو غباء الحبِّ؟

هل هي جرأتي أم لامبالاته؟

أم خداع الحبِّ؟

هل هو شغفي أم كذبهُ؟

أم مرض الحبِّ؟

يبدو أنَّهُ ذنبي الكبير، هذهِ الخطيئة التي لا تُغتفر ولو بألف استغفار، خطيئة الحبِّ.

ليس فقط الحبّ، لا، بل أن تعشق شخصاً لستَّة سنوات، من دون أن تعرف شكلهُ، ملامحهُ، صوتهُ، من دون أن تعرف عنهُ سوى الاسم، واسمهُ من أسماء السيف الذي اخترق قلبي بقسوة، وخزَّ مشاعري وأعلن الحرب على هذا الجسد البالي ضعيف البنية، لماذا كُلُّ هذهِ القسوة؟ ولماذا مشاعرهُ رعناء جامحة همَّشت ما تبقَّى لدي من عاطفة؟

كنتُ صغيرةً في العمر مُحبَّة للحياة، روحي والتفائل وجهان لعملة واحدة، كنتُ بريئة عفوية ذات ابتسامة تدخل إلى قلب كلِّ شخص بدفء، تُشعرك بالأمان والراحة، كنتُ كفراشة تُقبِّل رحيقَ الأزهار، لكن هو قد قطع جناحي الجميلين وتركهما ملقيين بين الحبِّ والألم.

قبل ستِّ سنواتٍ من الآن كنتُ طالبةً مرحة كثيرة المزاح والكلام، كنتُ ميسورة الحال، وكان لدي امتحانُ شهادة الثالث الإعدادي «الصفُّ التاسع» لم أستطع مثل جميع الطلاب أن أسجِّل بدوراتٍ إضافية بعد المدرسة، لأنَّ حالة عائلتي الماديَّة لم تكن جيِّدة كثيراً، وللأسف ففي المدرسة لا يعطي الأساتذة الكثيرَ من الدروس كما هو مطلوب منهم أو واجبهم، لا بل يحرِّضون الطلبةَ على تسجيل بدورات إضافية بعد المدرسة ليكسبوا مالاً أكثر. وبعد عدَّة أشهر من الدوام المستمر في المدرسة، إلا أن الأساتذة لم يعطوا الدروس بحجة أنَّه ليس هناك عدد كافٍ من الطلبة.

لم يكن بوسعي فعل شيء فأخبرت لأهلي، وقالوا لي إنَّهم لا يستطيعون دفع أقساط سوى دورة واحدة، وهي الرياضيات، أمَّا باقي المواد فعليَّ أن أدرسها لوحدي من دون مُعلِّم أو أي شخص يشرح لي، وقال لي والدي:

- نحنُ بالكاد نستطيع أن نأكل، وأنتِ تريدين أن تسجِّلي في دورات؟ تذكَّري أنَّكِ مختلفة عن الناس، نحنُ لسنا مثلهم.

صمتُّ ولم أستطع أن أتكلَّم بأيِّ حرف.

كان أستاذُ الرياضيات الذي سجَّلني والدي عندهُ صديقه، قال لهُ:

- فلتأتِ إلى هذا العنوان.

أخبرني والدي بالعنوان، وذهبت ودخلت، سلمت على الطلاَّب، كنَّ خمس فتيات بعمري.

قال الأستاذ:

- هذهِ وهم، إنَّها طالبة جديدة.

رحَّبت بي الفتيات وبدأ الدرس، كنتُ طالبة مُجدَّة، أثبتتُ شخصيتي من الدرس الأوَّل فأحبَّتني الفتيات جميعاً، ويوماً بعد يوم تعلَّقنا ببعضنا أكثر فأكثر، أحببنا بعضنا بعضاً لدرجة كبيرة، وفي يوم بعد انتهاء الدرس قامت سمر بدعوتي لزيارتها في بيتها، كان منزلها قريباً من المكان الذي نأخذ فيه الدرس، فذهبنا، وصلنا وفتحت الباب بالمفتاح، الباب أزرق كبير مُحلَّى ببعض الصدأ، دخلنا، وكان البيت كبيراً من عدَّة غرف بطابقين، الأرضيُّ مُجهَّز ولكنَّ الطابق الثاني قيدُ التجهيز، فتحتْ باباً أخضر اللون ودخلنا، كانت غرفة الضيوف تحتوي على أرائك بلون سمني ومُخرَّمة بورود زيتية اللون، وسجَّادة خضراء زيتية بورود كبيرة مقطوفة ومرمية عليها بطريقة أنيقة، وفي الطرف الأيسر من الغرفة حاسوب صغير ومعالجان، أومأت لي سمر بالجلوس وقالت:

- هذا منزلنا المتواضع، ثوانٍ وأعود.

ذهبتْ وبقيتُ أنا أتفرَّس في الغرفة بعينيَّ، وكأنَّني فأر قد دخل في ثقب وخرج من الطرف الآخر يتفحَّص المكان، دخلت سمر فجأة أصحتني من تفرُّسي، وقالت:

- عجبك البيت؟

- إي حلو.
- هذهِ حلويات، عاد أبي من الحسكة البارحة وأحضرها معهُ، هيَّا تفضَّلي.
- شكراً.

وجلسنا كأي فتاتين ننسج الأحاديث، وفجأة كلمح البصر دخل هو وأطلق سهامهُ بسرعة وخجل بكلمة «مرحباً» كانت هذهِ الكلمة فقط كفيلة بسلب قلبي بسرعة، أنا لم أُلحظ شكلهُ أبداً، لمحتهُ فقط،غبية حقاً، نعم غبية جداً وقلبي معجون من مادة ثنائي أوكسيد الجنون، سلَّمتهُ قلبي ورميت المفتاح في جيبهِ، لا بل سلمتهُ إيَّاه ولم أُقاوم عند أوَّل سهم، لم أحارب بل جعلت سهمهُ يُقبِّل قلبي من دون شفاه، أسرني بخصلات شعرهِ الطويل تحت أذنيه التي تغطِّي عينيه القاتلتين بعسليَّتهما الطاغية، لم أرَ وجههُ جيداً، فقط هيكلهُ وشعرهُ، إذاً كيف استطاع سلب عقلي؟ وغيَّرني من طفلة بريئة إلى أنثى طاغية؟ هجرتُ الأحاديثَ البريئة وتعلَّق على شفتيَّ الحبُّ حتَّى تمكَّن من الدخول إلى فمي وقلبي مستقرَّاً فيهِ، ناصباً قصرهُ الطفوليِّ، نعم الحبُّ كالحيوانات الأليفة، تحبُّها ولكنَّها يمكن أن تؤذيك كالحيوانات الطفيليَّة تدخل بيتك وجسدك وعقلك رغماً عنك، ودون استئذان، تستعمرك. استمرَّ حبِّي السرِّي له لمدَّة سنوات أخفيه بين رموشي، أحميه بقلبي، أجعلهُ ينام بأحضاني، أتألَّم لكنَّ الأمل بحبِّه لي ذات يوم يحيي ربيع قلبي الخريفيِّ، هجرتُ العالم وسكنتُ عالمه، غادرتُ كوكب الأرض واستوطنتُ كوكبه الخيالي.

هو!

من هو ياترى؟ وهل تُراهُ يستحقُّ كلَّ هذا الحبّ؟

هل سيدمنني؟

هل سيعشقني؟

هل سيحبُّني يوماً؟

هل سيضحِّي من أجلي أم سوف يضحِّي بي؟

هل... هل... هل... كُلُّها أسئلةٌ لم أكن أعرف إجاباتها، وصُدمتُ عند معرفتها.

انتهيتُ من زيارة سمر، أو كما سميِّتُها أختَ مجنوني الخاص، ذهبتُ ولم أكن أمشي على الأرض، لا بل انزلقتُ بسرعة، كنتُ طائرةً بأجنحة الحبِّ الخاصَّة بحبِّه الغريب هذا، وبمرور الوقت بدأتُ رويداً رويداً أتعلَّق بشخص لا أعرف منهُ إلاَّ اسمهُ، فقط اسمه.

وصلتُ البيت ودخلتُ وعقلي وقلبي لم يدخلا معي، قد تمَّت السرقة، سُرقا من قِبَلِ مجنوني الخاص، دخلتُ غرفتي، والجميع استغربوا ماذا حدث لي. مبتسمة خفيفة كفراشة، أغلقتُ بابَ الغرفة عليَّ ورحتُ أتكوَّر حول نفسي كعادتي وأغرق في شبر حبّ.

هو كان باردَ القلب وعديم المسؤولية، آهٍ كيف أحببتُ أبلهاً مثله؟ كان طالباً يكبرني بثلاث سنوات، كان طالب بكالوريا «صدقتْ مقولةُ الحبُّ أعمى» يوماً بعد يوم أصبحتُ أتخيَّلهُ حسبَ ما قمتُ برسمهِ بمخيِّلتي، حسب ما صوَّرهُ لي قلبي الغبي العفويِّ، حسناً من الغباء هذا العشق ولكنِّي غرقت ولا أجد هذهِ الكلمة كافية أو معبِّرة عن مشاعر قلبي، بل إنِّي أستطيع القول بأنَّني مجنون ليلى، لكنَّ الآية قُلبت هنا، فليلى هي التي ذابت بقيس، منذُ أوَّل لمحة منهُ، أوَّل نظرة خاطفة صنعتُ قصَّة حبٍّ من أوَّل ثوانٍ رأيتهُ فيها!

هل هو ساحر؟ لا أعرف، لكنَّهُ أشربني سحرهُ منذُ أوَّل لحظة.

هل هو صياد؟ رمى إليَّ بنظرة مدروسة بخطاف حادٍّ اقتلع قلبي بسرعة ووحشية مدروسة بخفَّة حركة.

من هو؟ ماذا يخفي وراء كلِّ هذهِ المشاعر التي تحدث لي؟

اتَّصلتُ بصديقتي لتخبرني متَّى موعد الدرس، صديقتي هي سمر أختُ مجنوني الخاصِّ، بقي الهاتف يرنُّ ويرنُّ وقلبي يخفق صوتهُ كصاعقة، لكنِّي حمدتُ الرَّبَّ على أنَّها صاعقة صامتة هائجة، ولكنَّها تؤذيني فقط، رنَّ ورنَّ وبعد ثوانٍ لم تتجاوز الثلاثين رُفعتْ السمَّاعة من الطرف الآخر، أجاب شخص، جائني الصوت حادّاً برجولة قاتلة:

- مرحباً.

صمتتُ بأفكاري، واختفى صوتي هارباً ضاحكاً مودعاً لي ، وأنا أتوسَّل إليهِ الرجوع، لكنَّهُ أبى، ماذا سأفعل؟ إن لم أتكلَّم سوف يُقفل الخطَّ، يا إلهي كم أتمنَّى أن نبقى أنا وهو على هذهِ الحال تجمعنا سمَّاعتان ومكالمة واحدة، وصوت واحد وانتظار واحد، لكن قلبهُ لم يحسَّ أبداً بكمية المشاعر المتدفِّقة من خلال سمَّاعة الهاتف، سمَّاعة هاتف لا تتَّسع لها، فأنا جنونية حتَّى بمشاعري، بدأتُ أقصف بهِ مشاعري بكلِّ وحشية، لكنَّهُ ماهرٌ صدَّ كلَّ الضربات.

صرخ بصوت أعلى:

- «ألو! مين معي؟»

لم أعرف ماذا أفعل، يا إلهي لقد ذبتُ بكلماتهِ، ولم أعُد على الأرض، ولو شاهدني أحد لأحسَّ بارتفاعي بضع سنتيمترات عن الأرض، تمالكتُ نفسي خوفاً من أن يُقفل الخط، قلتُ بصوت خائف مليء بالشوق:

- مرحباً.

وهي تعني أشتاقك.

- أهلاً، من؟
- أنا صديقة سمر، هل هي موجودة؟
- نعم، انتظري.

وصرخ: «سمر! سمر صديقتكِ على الهاتف»، كنتُ أسمع صرخاتهُ كأنَّها ترانيم موسيقا لمقطوعة بتهوفن الشهيرة.

- مرحباً وهم، كيف حالكِ؟
- أهلاً، أنا بخير، أريد أن أسألكِ متَّى موعد درس الإنكليزيِّ؟
- الثانية عصراً، لا تتأخَّري، إنَّني أنتظركِ، مرِّي عليَّ لنذهب معاً.
- حسناً.
- حسناً.
- مع السلامة.

لم أكن أملك ثمن سوى دروس الرياضيات، لكن مرَّةً قامت الفتيات بجعلي أحضر معهن درس اللغة الإنكليزية، ولشدَّة حبِّي للدرس وملاحظة الأستاذ أنَّني شخص محبٌّ للُّغة فقد عرض عليَّ أن أحضر الدروس بالمجَّان بعد موافقة الفتيات، بالطبع لقد أحببتُ ذلك وأحسستُ بأنَّهُ باب فرج وفُتح، وافقت الفتيات بالطبع، ومن يومها بدأتُ أدرس اللغة الإنكليزية معهن.

أصبحت الساعة الثانية بعد الظهر، حملتُ كتُبَ اللُّغة الإنكليزية وذهبتُ إلى منزل سمر، كان يبعد حارتين فقط عن بيتنا، وصلتُ وأنا أدندن بكلمات مُبهَمة، قرعتُ الجرس فخرج مهنَّد، وبنظرة خاطفة قال لي:

- من؟
- وهم صديقة سمر.

وفتح الباب على مصراعيهِ دون النَّظر في وجهي قائلاً:

- انتظري قليلاً.

وذهب هو ونادى على سمر، فخرجنا سوية إلى الدرس، كان المنزل الذي نأخذ فيه الدروس على بعد حارة فقط من منزل سمر، كان الأستاذ شابَّاً في منتصف العقد الثاني من عمرهِ اسمهُ قتيبة، عريض المنكبين طويل القامة، ذو طبع مرح ويحبِّبُنا بالدروس أكثر فأكثر، سرنا سوية ونحنُ نتناقش في أمور الدرس والقواعد والأمثلة، ولكنَّ لساني مع سمر أمَّا عقلي ملكهُ، قلبي ملكهُ، نظرتي ملكهُ، كُلِّي ملكهُ. أخذتُ أُفكر فيه ألف سنة في اليوم، بل إنني تركتُ كُتبي وبدأت كتابة روايات خيالية في ذهني عنهُ وعنِّي، هجرتُ أهلي وأصدقائي وعالمي وتفرغتُ كلِّياً لهُ هو **فقط** سيد عرشي، مَلِكُ قلبي، أميري وساحري الليليُّ، بطل أحلامي، أجدُ فيه حنان والدي، أخي الأكبر، أمِّي، أختي، صديقتي، أجدُ فيه ديني، معبودي من بعد الله، أجدُ فيه الكون، زغردة العصافير الصباحيَّة، أسمع صوتهِ في غناء فيروز في صباح ماطر، أجدُ فيه قهوتي مع أرطال من السُّكَّر، أجدُ في بسمتهِ –التي لم تسمح لي الفرصة أن أراها أبداً– الأمل. أنا هذهِ القاسية العصبية المتحجرة متبلدة المشاعر قد أذابني بلمحة بصر بكوب قهوتهِ السادة، أو سكر وسط أو حلوة في الواقع لا أعرف ما هي. لا أعرف عنهُ إلاَّ أنَّني أعشقهُ بشعرهِ الطويل المائل إلى الأشقر الغامق، بطولهِ الفارع، بعقلهِ الشاعريِّ، بل هو يغرقني شعراً بدون أيَّة كلمة، فقط عند تفكيري فيهِ أشعر أنَّهُ حولي، معي يحتضنني من البرد، يحميني أنا التي لم أملك أخاً أكبر، كيف استطاع أن يجعلني أتحوَّل من طفلة شرسة إلى عاشقة، إلى أنثى، إلى مجنونة أكتب حروف اسمه على أوراقي وكتبي ودفاتري، أكتبهُ على جدران الشوارع لكي تعرف شوارع الرِّقَّة وجدرانها من هو مجنوني، أحببتُ أن أُشاركَ سوريا كلَّها حبِّي، قصَّة قيس وليلى في القرن الواحد والعشرين، لكنَّه مجنوني هنا، قيس المعشوق اللامبالي عديم المسؤولية «الفاشل» بالحبِّ بنظري، لأنَّهُ لا يشعر بحبِّي من خلال المكالمة، صوتي الذي يرتعش ويقول ألفَ كلمةِ حبٍّ بكلمة «مرحباً» لكنَّهُ جامد، هل لأنَّني لم أُصارحهُ بحبِّي؟

وماذا تفعل الشرقية المتحفظة بكبريائها ونرجسيتها وغرورها؟ نعم فالشرقية عليها ألاَّ تعترف بالحبِّ أمامَ من تحبُّ وأن تخفيهِ عنهُ، ولو اضطرت لفعل هذا عمراً كاملاً .

لكن هنا يضعنا أمام السؤال الذي لطالما حيَّر الجميع:

ولماذا لا تعترف هي؟

سيبقى هذا السؤال يحيِّرني ويحيِّر العربَ إلى زمنٍ طويل، أو أظنُّ أنَّها ينبغي ألاَّ تفعل هذا لأن العواقب دائماً ستكون وخيمة.

لم أُدرك هذا أبداً إلاَّ بعد فواتِ الأوان، صغيرةً في أوَّل حبٍّ لي، في أوَّل خطوات المراهقة المجنونة، إذ كانت عاطفتي تتحكَّم بعقلي الصغير، ولم أكن أعرف ما هو الحبّ أبداً. تركتُ أغلب دراستي وتفرَّغتُ لخيالي وغوصي العميق فيهِ، وبدون أن أدرك أن الامتحان غدا على الأبواب، كنتُ تلميذة نبيهة لا أدرس كثيراً، لكنِّي كنتُ أمتلك ميزة الحفظ والفهم السريع وخصوصاً في اللغة الإنكليزية لأنَّني من عشاقها.

كنتُ نائمة، ودخلت أمي الغرفة وهي تصرخ باستغراب مني ومن وضعيتي قائلة:

- استيقظي! الامتحان على الأبواب، والطلاب يدرسون وأنتِ نائمة في أحلامكِ! هيَّا! سترسبين!

الكلُّ كان يعتقد بأنَّني سأرسب، لأنَّني لا أدرس شيئاً، أقضي الوقت بالنوم والأحلام والرسم والكتابة، أو التسكُّع مع صديقاتي حول منزلهِ، أتمنَّى أن ألمحهُ عند طريق بالصدفة المقصودة، وكنتُ إذا صدفتهُ في الشارع أتلبَّك ولا أستطيع النظر إليهِ أبداً، لهذا لم أكن أعرف شكلهُ واضحاً، فقط لمحات، كنتُ إذا رأيتهُ في الشارع أغيِّر الطريق وأراقبهُ من بعيد فقط، وكنتُ أؤرخ الأيام التي أراهُ فيها، وأصبح سعيدة من لمحة منهُ، وكأنَّني بقيت أحادثهُ سنة كاملة دون انقطاع.

هل هو الحب؟

أم هو النقص العاطفيُّ الذي يجتاح المجتمع العربي الفقير عاطفياً؟

نعم، الوطن العربيُّ الغنيُّ بالسُّكان الفقراء عاطفياً!

الوطن الذي يملك مخزوناً نفطيَّاً يستطيع بهِ أن يغزو العالم لكنَّهُ يريد دائماً أن يبقي شعبهُ فقيراً ماديَّاً، نفسيَّاً، جسديَّاً، فقيراً ثقافيَّاً وذهنيَّاً وإبداعيَّاً، فقيراً عاطفيَّاً أيضاً.

لدرجة أنهُ من أول معاملة لائقة محترمة من أي شخص لشخص آخر يبدأ لا إرادياً ينسج قصَّة حبٍّ فقيرة عاطفيةٍ كلَّ الفقر.

كنتُ أدرس ساعاتٍ قليلة ولكن باستيعاب كبير، يوم الامتحان الأوَّل كنتُ باردة لا مبالية، وكنتُ كمكعَّب ثلج بينما والدتي تشتعل من القلق، جاءت إليَّ فوجدتني نائمة،

صرخت بي وهي تضرب رأسها بكفَّيها الحنونتين التي سكَّنتهما الخشونة قائلة:

- هل أنتِ غبية؟ قومي الامتحان بعد ساعة ونصف!

بتثائب وعظام مهدودة، مُثقلة حبَّاً وشوقاً وألماً وحنيناً يُكسِّرُ أضلعي، استيقظتُ بتثاقل وكأنَّني كنتُ أحتسي الخمر طوال ليلة البارحة، في الحقيقة كنتُ أحتسي حُبَّهُ كاساتٍ كاسات، من دون أن يشعر بي أحد، رددتُ والتثاؤب يُصارع فمي:

- «إي إي...»
- «وك يلا!»
- «إيييي!»

استيقظتُ بعد صراخ أمِّي، أخرجتني من نشوةِ الخمر، وقمتُ بكامل نشاطي مع ألمٍ طفيف في رأسي، واغتسلتُ لأستعيد كامل نشاطي، وفطرتُ كالعادة الوجبة الرئيسة على الفطور –كما كان وما زال أبي يقول: الزيت والزعتر عصب الحياة– فطرتُ زيتاً وزعتراً بشهية مفتوحة وأكلتُ ما يقارب رغيفاً ونصف الرغيف، وشربتُ تقريباً نصف إبريق الشاي، كعادتي لا أحبِّذ شربهُ إلاَّ بارداً أتلذَّذ به –كما يقول خالي: «شغل مدخنين»– وأنا أتلذَّذ بالفطور تصرخ أمِّي وتندب حظَّها بقربي قائلة:

- «من وين هل برادة تبعك؟ أمُّ دمٍ بارد! أنتِ من ذوات الدم البارد!»

أضحكُ وأكملُ. انتهيت، بل بصراحة جرَّتني هي إلى كتاب المادَّة، كانت مادَّة الدراسات الاجتماعيَّة، أستغرب لماذا ندرس الاجتماع ونحنُ مجبرون على معايشة الجميع بالغصب اجتماعياً بالفطرة؟ أظنُّها كانت من ثلاث مواد: الجغرافية التي كنتُ أحبِّذ فيها الرسم وحفظ خرائط المدن، وحفظ التعداد السكَّاني والأراضي الزراعيَّة التي فيها، وأهمَّ شيء عدد الوفيات، والنفط في نسبة تسمى طردية، فكلما مات بشر دُفنوا وتخمَّروا وأصبحوا نفطاً، فالموت للبشر والازدهار للنفط، و نسبة المياه في الدولة، فكمية المياه في الوطن العربي كبيرة، وهي ما سبَّب لنا الحروب، تكالبت الدول الأخرى علينا بسبب الماء، لأنَّها عصب الحياة، أتوقَّع في القرون القادمة أن تقع حرب مائية، لقد بدأت بالأحرى ولكن لغبائنا وسذاجتنا الفطرية لم نلاحظ.

والمادَّة المُحبَّذة لدي والتي لطالما أحببتها –هي ومُدرِّسها– هي التاريخ، كنتُ وما زلتُ مُحبَّة لهُ، التعرُّف على حضارات ومنحوتات وآثار قديمة هوسي السرِّيُّ، كنتُ أحبُّ

صياغة المعارك حسب نظرياتي الخاصَّة، أقارن بين الشعبين المتحاربين، ونقاط الضعف والقوَّة، وكنتُ أسجِّل نظرياتي الخاصَّة واستنتاجاتي، لطالما قال لي الأستاذ: «أنتِ من طينة المعارك»، أظنني مخطَّطة ناجحة! فأنا من أحفاد الوليد والرشيد! كنتُ أحفظ التواريخ وأحبُّ التأريخ، وأراقب الحكَّام القدماء في حسناتهم وسيئاتهم، وطريقة معاملتهم مع الجواري، والشعب خاصَّةً، والملكات بوجه الخصوص.

والمادة الثالثة كانت القوميَّة، وكما يقول أبي: «السياسة مثل الكذب لهذا أنتِ تحفظينها بسرعة». كنتُ أحبِّذ النظريات الفلسفيَّة القوميَّة كثيراً، أتلذَّذ بدراستها وأحبُّ أرسطو والنظريات الخياليَّة الاشتراكية وغيرها، وكنتُ أحفظ البنود والحروب وتواريخها التي تخصُّ سوريا بشكل خاصٍّ، والوطنَ العربيَّ الجريحَ بشكل عامٍّ، أحببتُ إبراهيم هنانو وغيرهُ من الأبطال. أظن أنه لدي هوس بالمقارنات والاستنتاجات الغريبة، طبعاً كلُّها خاصَّة بي، انتهيتُ من المراجعة، وقبَّلتُ يدي والدتي الحنونتين، ارتديتُ كنزة خضراء أتفائل بها كثيراً، مع أنَّني مدمنة أزرق لدرجة قلت لأمي: لِمَ لا نغير اسمي إلى زرقاء أليس أفضل؟ فكانت تضحك عليَّ كثيراً، ذهبنا بعدما كحَّلتُ عينيَّ، وحملتُ قلمي وبطاقتي الامتحانية بيضاء اللون –والتي أودعتها بعد ذلك عند صديقتي وحسبتُ أنَّني أضعتها وكدتُ أن أتعرض للقتل من قبل والديَّ لشدة غبائي– خرجنا وكنتُ متأنِّقة وكأنَّني ذاهبة إلى حفلة زفاف وليس امتحان، وصلنا إلى الامتحان، وقالت لي صديقتي:

- أتمنى أن أكون رجلاً لأتزوَّجكِ.

قلت:

- ولماذا؟

فقالت لي وأخجلتني:

- لأنَّكِ جميلة الوجه جذَّابة الشفاه، عيونكِ يغزوها البنُّ، متواضعة بغرور قاتل، والجميع يحسدكِ على هذه الجرأة التي تمتطينها، وقوَّة الشخصية خاصتك، نعم وكيف لا تكونين هكذا، وأنتِ سوريَّةٌ من تراب الرِّقَّة ومعجونةٌ بمياهِ الفرات؟

الطلاب تبكي. وهنا أخذنا نضحك. وأنا أذهب إلى البيت أنام وأُذاكر وأغرق مرَّةً بعد أخرى في حبِّهِ، وكنتُ أُذاكره بشغف كلَّ ليلة في أحلامي دائماً، هكذا حتَّى أنهيتُ الامتحان، لو أنَّني كنتُ أُذاكر الدروس والكُتب بقدر مذاكرتي لحبِّهِ لكنتُ الأولى على

سوريا. مرَّت فترة على ظهور النتائج، كنتُ فيها آكل وأحبُّهُ وأنام وأحبُّهُ وأحلم وأحبُّه. كان في كلِّ تفاصيل حياتي وجههُ الغامض الذي لم يشأ القدر على أن أراهُ باكراً، كان يريدُ أن يتلذَّذ بكِّيِّ بنيران الشوق والشوق المضاعف، جاء اليوم الحاسم للنتائج وكما يقولون: «جاءك الموت يا تارك الصلاة»، وبالفعل قالوها لي جميعاً بدون استثناء، وظهرت نتائج الجميع، إلاَّ أنا أهلي قلقون والجميع متوتِّر، وأنا أتصرَّف وكأنَّني بدون مشاعر، جاءتني أختي بقلق قائلة:

- «مو خايفة خالص؟».
- أبداً؟
- ولا حتى متوتِّرة من النتيجة؟
- قطعاً لا.
- طيب أأنتِ واثقة بأنَّكِ ستنجحين؟
- طبعاً بإذن الله.
- أكرهكِ أنتِ وثقتكِ الحقيرة.
- شكراً.

وصاح لي أبي:

- وهم تعالي بسرعة، قد ظهرت النتيجة.

وركضتُ أنا وأختي، وقلتُ بكلِّ برودة أعصاب:

- ما هي؟
- لقد نجحتي بمجموع جيِّد جدَّاً، لم نكن نتوقع هذا أبداً، لقد ظننتكِ سوف ترسبين، لم أتوقَّع نجاحكِ أبداً.
- ها ها، لم تكن تعرف من هي وهم!

وبدأت أمي بالهلهلة من الفرح، ولا أدري من أين قليلة امتلأ منزلنا بالناس في دقائق لتهنئتي، وقضيتُ الوقت أستقبل قُبلات الجدَّات والخالات والعمَّات، حتَّى أحسستُ أنَّ دمي قد جفَّ من التقبيل، ولكنِّي بقيتُ حزينة، لم يهمَّني أحد أبداً، بل كنتُ أتمنَّى لو أنَّهُ هو من يهنئني بدلاً من كلِّ هؤلاء الناس، رغم نجاحي، إلاَّ إن النجاح من دونهُ لم يعنِ لي شيئاً أبداً، بل كلُّ ما كان يعنيني هو، فقط هو، تمنَّيتُ لو اعترفتُ لهُ بحبِّي وبادلني هو نفس

الشعور، ويتَّصل ويهنِّئني بنجاحي، لكن هذا كلُّهُ في خيالي فقط. كنتُ أنسج الأحلام عنهُ، وأنا لا أعني لهُ شيئاً، بل هو بالأحرى لا يعرفني. مرَّت خمسُ سنواتٍ على حبِّي لهُ ورفضي للجميع، رفضتُ كلَّ من أحبَّني رغم أن الكثيرين كانوا أفضل منهُ بكثير، لكنَّ حبِّي الصادق والصافي والمخلص منعني، كنتُ كمن يرتدي حجاباً حول قلبي، وليس رأسي فقط، فلم أدع أحداً يدخل قلبي، بالأحرى لم يدخلهُ غيرهُ، رغم المحاولات الكثيرة للدخول إليهِ، أو حتَّى الطرق على بابهِ، لأنَّني كنتُ أمنع كلَّ شخص يحاول الاقتراب مني، كنتُ كلبوة شرسة تدافع عن أسدها الجريح، فتاة جذَّابة لا يتعرَّف إليها أحد إلاَّ ويقع في غرامها من دون أن يدري، إلاَّ هو، ففي المعهد الذي كنتُ أدرس فيه البكالوريا كان هناك فتيان كُثر، وأكثرهم جذَّابون وذوو مواصفات متميِّزة، حاولوا التقرُّب والتعرُّف عليَّ، كنتُ أكلِّم الجميع بلطف ورقَّة ولباقة فيفهموني بالغلط فيبدأ بالظنِّ أنَّني أحاول نسج قصَّة حبٍّ معهُ، هذا هو الجفاف العاطفي في وطننا العربي، أيَّة معاملة لبقة تعني «قصَّة حبٍّ».

كيف أستطيع الحبَّ من بعد «مجنوني» الذي لا أعرف شكلهُ بوضوح؟ حتَّى بعد خمس سنوات بقيتُ أرسم شكلهُ في مخيلتي الخصبة، فيبدأ الجميع بالأحلام العاطفية والتودُّد إليَّ وخلق أحاديث لعلَّهُ يحدث شيء، لكنَّني كنتُ اتعامل مع الكلِّ كأصدقاء **فقط**، وكلمة أصدقاء كنتُ أعني بها أنَّ قلبي مغلق، فيه مجنوني ويُمنع الاقتراب، وكنتُ عندما أساعد شخصاً أو أي صديق يبدأ بنشر الإشاعات بأنَّني على علاقة حبٍّ، وكنتُ عندما أسمع هذهِ الإشاعات رغم ضجيجي إلاَّ أنني أتصرَّف تجاهها بصمت، لأنَّني لا أهتمُّ لكلام أحدٍ أبداً، يكفي ما بقلبي من ألم وحبٍّ، وكنتُ لتفادي هكذا إشاعات عندما أتحدث مع الأصدقاء أخبرهم بأنَّني لا أؤمن بالحبِّ، وأنهُ غير موجود، وأحاول صدَّ الجميع لكن بطريقة لائقة، إذ لا أحبُّ أن أجرح أحداً أو أذلَّ أحداً بالحبِّ أو غيرهُ، ليس من حقِّي، ولا من حقِّ أي بشريٍّ أن يُذلَّ بشريَّاً آخرَ مهما كان لونهُ أو جنسهُ أو دينهُ، كلُّنا سواسية من طين.

قلوبٌ وجيوبٌ فقيرة



«إذا عَيَّرَكَ شخصٌ ما بأنَّكَ فقير فقل لهُ:
انظر إلى عقلكَ وقلبكَ قبل أن تنظر إلى جيبي»

بيداء الصالح

مرَّت الأيَّام وغار الزمان، وأُثقل قلبي بالشوق والآلام والحنين، الزمان دائماً غادرٌ كتشرين، فجأة يمطر، الأزمنة والأماكن في أقداري صحيحة، ولكن أظنُّ أنَّني أنا الخطأ في الموضوع، عندما طلب يدي الكثير رفضتهم كمن يُغلق الباب في وجهِ عابر سبيل بقوَّة، ففي يوم من أيَّامي الماطرة في المعهد الذي كان يقع في الثكنة «اسم منطقة بمحافظة الرقة» ذهبتُ بتأنُّقٍ يليق بقلبي الشتائيِّ الماطر، خرجتُ وكحلي قد شوَّه عيني فصبغ قبلاتهُ حولها بشدَّة حتَّى غارت البنِّيتان بالسواد، ارتديتُ بنطالاً أخضر اللون ومعطفاً كان يحيط بخصري وكأنهُ يقول لخصري: «على اعوجاج خصركِ سألفظ آخر أنفاسي»، ولكنَّهُ لفظني أنا، حملتُ حقيبتي المليئة بالكتب، كانت سوداء مرسوم عليها كأس العالم لقارَّة أفريقيا، فكنتُ أسمع الكثير من التعليقات «التلطيشات» عليها، وببرود شتائي لا أبالي بأحد، وصلتُ وكانت حبات المطر قد أعدَّت لي مفاجأة شتائيَّة بحتة، فعندما وصلت إلى المعهد كان هناك تجمُّع كبير، وبدأت حبَّات المطر ترسم على الأرض كثيراً من الدوائر اللامتناهية إثر معانقة القطرات للأرض، ولأنني عروس زفَّها المطر، عاشقة للمطر لدرجة «الأوسكار»، لا إرادياً فتحتُ يديَّ على مصراعيهما وكأني «روز» في فلم «التايتنك»، ولكنَّ «جاك» نائم لا مبالي، فبدأ كلٌّ من في الثكنة بحارة المعهد يحدِّق باندهاش مُحلَّى بالاستغراب، مع كثير من رشَّات إشارات التعجب: «ما بالها؟ هل هي مجنونة؟ هل تحسب نفسها وحيدة في الشارع لتفعل حركة مجنونة كهذه؟ كأنَّها تقول للمارة تعالوا عانقوني مجَّاناً!» في هذهِ الأنوثة الطاغية المُرصَّعة بالمطر، بدأوا بالتساقط أمام قلبي كحبَّات المطر، بل وجاروها سرعة حتَّى قام بعض الفتيان بالتصفيق لي وقال أحدهم:

- «دخيل الرومنسي أنا».

وبدأوا بالضحك، لم ألتفت، فقط أسدلتُ يديَّ وتابعتُ المشي إلى أن دخلتُ باب المعهد، كان المعهد حديثَ الافتتاح والشبَّان والشابَّات الذين يرتادونه يتعاملون كالإخوة – حسبما كانوا يقولون– لكنَّه كذب، من أين أتت هذهِ الأخوَّة؟ حدثت من العدم؟ دخلتُ ولم أجد في الداخل إلاَّ الطلاب يحتمون من قُبلات المطر، وكأنَّهم عذارى خائفون من قطرات مطر تسلبهم عذريتهم الكاذبة، دخلتُ غرفة المدير وحيَّيتهُ كعادتي، وسألتُ قائلة:

- أين المُدرِّسون؟
- «والله يا وهم خايفين يتبللو».

- «لا تقولا أحلا شي المطر».
- «إي يا رومانسية هنن بردانين».
- والحل؟
- «بدنا نستنا تايوقف هل مطر».
- حلو.

قلتها بابتسامة شخص خبيث ماكر، حصل على ما يريد، وكانت هذهِ هي مفاجأة المطر الذي قد خبئها لي الشتاء، مطر وغياب.

دخلتُ وخلعتُ حقيبتي عن كتفيَ الذي أثقلتهما كلمات الكتب، وقلتُ لزملائي:

- من سوف يخرج؟
- إلى أين؟
- إلى الحياة؟
- «شو خرَّفتي؟»
- «لا قصدي مين يمشي تحت المطر؟»
- «شو أنتِ مجنونة؟ مشان نمرض؟»
- «أف مجانين! أنا رايحة!»

ووضعتُ حقيبتي أمانة عند المدير الذي قال:

- «وين يا مسهل؟»
- امشي مع المطر.
- «تتهني نيالك».
- «امشي».
- «ها ها مو ناقصني امرض».

ما قصَّتهم مع المرض؟ مستعدَّة أن أمرض دهراً إذا كان السبب المطر! خرجتُ وكان هناك جمع من الطلاَّب مجتمعين أمام الباب يحتمون بالمظلاَّت، خرجتُ كعروس سوف تتلقى عريسها في يوم ماطر، خرجتُ وقال لي أحد الطلاَّب الذين أعتبرهم من أصدقائي المقربين:

- «من كل عقلك طالعة؟»

- «لا خليتو وطلعت!»

وضحكتُ، وضحك على هذا السؤال والجواب الغبي الكثير من الطلاب، كان المعهدان «تبارك» و«ابن عربي» بجوار بعضهما، فأصبح هناك زلزال ضخم. لم آبه، رحتُ أتمشَّى وكنتُ قد وضعت مُشغِّل الـ«mp3» أصفر اللون في جيبي، وأطلق العنان لعناق السمَّاعتين لأذنيَّ الحمراوتين، وبدأت الأغاني تراقص روحي، تتصارع مع المطر، من سوف يراقصني أفضل؟ فتاة تجيد الرومنسية لدرجة الجنون، لدرجة أن تقضي ستَّ ساعات تتمشَّى أو تراقص المطر، استغربَ فعلتي اللاإراديَّةَ هذهِ الكثيرون، فعندما أتمشَّى تحت المطر أفتح يديَّ، من أعانق يا تُرى؟ أعانق روحهُ التي أتت تاركة جسدهُ لتراقصني، يا لِغبائكم! المطر يستحضر الذكريات والأرواح بنفس الوقت، وخلال مراقصتي الثلاثية الذي اشترك فيها المطرُ وروحهُ والأغاني التي أسمعها «ككذبك حلو، أغنية فلم التايتنك، وشاء الهوى»، وغيرها من الأغاني التي تعطي نكهة القهوة للمطر، وكأنَّني على موعد في مقهى الشتاء، أنا والمطر وكوب قهوة، وحين تُمطر أُراقصك تحتَ كلِّ قطرة، تقبِّلني روحك ألفَ قبلة بدون شفاه. أنت والمطر والقهوة مخدِّرات شتائية بحتة، تُسكرني من دون خمر، تُذهبُ ما تبقَّى من عقل لدي، تأخذني لدنيا الأحلام، وكأنني أليس في بلاد المطر، وفي أثناء طقوسي «القهوة مطريَّة» سمعتُ صوتاً ينادي من بعيد: «وهم! وهم!»، تخيَّلتُ أنَّني أهذي فقط، وأكملتُ طريقي، وإذ بأسامة يُمسك ساعِدي ليوقفني لأنَّني كنتُ شاردة أراقص المطر، ولم أسمع أحداً غير عالمي الذي قد استحضر أرواحهُ المطر، ألتفتُ وإذ بأسامة مبللاً بالمطر كأنَّه كان يقول لي بإشارة من يدهِ لأنزع السمَّاعات، نزعتها واستغربتُ وقلتُ بكلِّ سذاجة:

- ماذا هناك؟
- –لا شيء، لقد رأيتكِ تمشين وحيدة، وشجَّعتني بصراحة على المشي؟
- عفواً... آه جميل.
- نعم، هل نمشي سوياً؟

توقَّفت أفكاري دقيقة، ولم أُجب، أفكِّر من أين أتى هذا الآن؟ وقد قطع علي حفلتي الروحيَّة! دائماً هناك من يقطع كلَّ لحظات الحبِّ القصوى بطلب تافه، تمشَّى لوحدك يا رجل! المكان واسع، تداركتُ طلبهُ بابتسامة تعبِّر عن الاستغراب، وقلت:

- «أهلين تفضَّل!»

ولم يطلب بأدب، ولم يقل: «بعد إذنكِ، أو إذا لم يزعجكِ الأمر»، فقط حشر نفسه، اضطررتُ لإيقاف حفلتي «الأوبرامطريَّة الروحيَّة»، وأطفئتُ جهاز ال«mp3» تحسُّباً لأن يطلب منِّي أن يستمع هو أيضاً، سيبدو الأمر وكأنَّنا عاشقان وهكذا يزداد الطين بلَّة، لم أُرد إحراجهُ فوضعتُ جهاز الـ«mp3» إلى جيبي، وسرنا سوية تاركين مسافة نصف متر تقريباً بيننا، تحسُّباً لأي طارئ، وأخذ أسامة يتطرَّق لكثير من الأحاديث عن الحبِّ والزواج وإلى آخره، هكذا هو غباء بعض الشبَّان يظنون أنَّهم بكلامهم عن الحبِّ الذي حفظوه عن نزار وغيرهِ من الشعراء، إضافة إلى المطر، سيسلب لبَّ قلب الفتيات، أحياناً للصدق تكون هذهِ الطريقة نافعة، ولكن مع لبوة كأنا لا يمكن أن تدخل قلبها أيَّة ذرَّة منها، صحيح أنَّني كنتُ أتمشَّى مع أسامة، ولكنَّ مجنوني هو من سكن في أذني فأصمَّها عن عقول الجميع، وأغشى بخصلاتهِ الفاتحة على عينيَّ، وكأنَّهُ سكب في عقلي تعويذة طويلة الأمد لستِّ سنوات وما تزال قائمة في ذاكرتي، وكأنَّني قد سُقيتُها البارحة، قال أسامة وقد أحس بشرودي عنهُ:

- من هو حبُّكِ الأوَّل؟

صُعقتُ وكأنَّهُ كان يعرف أنَّني أفكِّر بمهنَّد، تلعثمتُ ولا إرادياً أمسكتُ كلماتي لكي لا أنطق باسمهِ أمام أحد، لأنَّني أريد أن أبقيه عذريَّاً في قلبي فقط، لأنَّه بالإفصاح عن أسماء أحبَّائنا نفقدهم عذريَّة الحبِّ، فقلتُ بخبث:

- لماذا؟

خجل أسامة من جوابي، فقد أصبتهُ حيث لا يتوقَّع، فقال بكلِّ خجل:

- لا ليس لشيء، فضولٌ فقط.
- حسناً.
- هل لديكِ حبيب؟
- نعم، أقصد لا.
- لم أفهم.
- أنا لا أؤمن بالحبّ.
- لماذا؟
- ها ها قال حبّ قال! من بقي من أغبياء على هذا العالم فقط يُحبُّون، الحبُّ

للحمقى والأغبياء فقط.

- أوه! يبدو أنَّكِ متأثِّرةٌ كثيراً.
- لا عاديٍّ.
- ليس عاديًّاً، وطريقة كلامكِ عنهُ كشخص مكويّ.
- ماذا؟ كيف مكويّ؟
- شخص مكويٌّ بالحبِّ، مُخمَّر، موجوع.
- «واو! كلامك حلو!»
- أعرف من هو.
- من؟ من؟
- حبيبكِ.
- «لا يوجد حبيب ولا حدا، شيلنا من هل سيرة»
- كما تريدين.

وتابعنا سيرنا، فحاول معي بشتَّى الطرق محاولات فاشلة لدخول قلبي المكويِّ كما قال، المُخمَّر بالحبِّ .

أسامة شابٌّ بعمري تقريباً، أبيض البشرة، اجتماعيٌّ يدخل القلب بسرعة «معشرانيّ» كما يُقال بلهجتي، كانت أكثر فتيات المعهد والمعهد المجاور مغرمات به، كما سمعت أن لديهِ حبيبة، ولكن طول فترة صداقتنا لم يذكر لي الموضوع أبداً، ودائماً يتصرف كـ«single» كما يُقال أي: «عازب غير مرتبط أو خاطب»، كان في شلَّتنا التي تتألَّف من: إيمان، حمصيَّة من سكَّان الرقة، خطيبة عمر، طالب هندسة مدنيَّة حمصيٌّ في حمص، تتواصل معهُ على الجوَّال دائماً، وعبد الرحيم أو كما نناديهِ رحيم، شاب رقَّاويٌّ من سكَّان الثكنة، مزوح، وملتزم يقدِّس رابط الصداقة كثيراً، مُجدٌّ في الدراسة كثيراً، كان مثالاً للشابِّ الصدوق، مع القليل من الانحرافات التي أصبحت في مجتمعنا لا غنى عنها، وكان هو وأسامة يخطِّطان لدخول كليَّة الهندسة المدنيَّة وعندما سألتهما:

- وماذا سيكون مشروعكما التخرجيِّ؟

ردَّ أسامة:

- بناية تحت الأرض، وسوف نبيعكِ شقَّة بالتقسيط، ما رأيكِ؟

وقتها أذكر أنَّني ضحكتُ من كلِّ قلبي، وآخر فرد في المجموعة –وليس آخراً– حازم، صديقٌ بكلِّ ما للكلمة من معنى، أسمر البشرة ذو عينين فاتحتين مرعبتين، كنتُ أسمِّيهِ «الشبح» لأنَّهُ كان يرتدي دائماً بنطالاً أسود، وكنزة سوداء ومعطفاً أسود داكناً ذا جيوب كثيرة، وقبَّعة سوداء، كنتُ أشكُّ أنهُ ألصقها بالغراء لأنَّني لم أرهُ من دونها أبداً، كان كرديَّ الأصل، يعاملني كابنة له مع أنَّه يكبرني ببضع سنوات فقط ، كان يدافع عنِّي دائماً عندما يستهزئ بي أفراد الشلَّة ، كان خير صديق وأخٍّ كما أنا بنظرهِ ابنة، ولحرصهِ وخوفهِ عليَّ، في يوم خرجنا أنا وعمي نور من البيت متأنِّقتين وكأنَّنا بحفل توزيع جوائز، ووضعتُ جهاز الـ«mp3» في جيبي والسمَّاعتان لي ولهُ وأمسكتُ يدهُ كعاشقة بخباثة، ورحنا نتمشَّى في شارع المعتزِّ ونتلقَّى التصفيرات والتعليقات مثل: «روح يا معلم، راحت علينا، وتعليق مزَّة جامدة»، والكثير، دخلنا شارع 23 شباط متجهين إلى الثكنة، وصلنا الثكنة وبدأت الأنظار تتحوَّل نحونا، وكأنَّنا نتمشى عاريين لا سمح الله، دخلنا الحارة التي يقع فيها المعهد والأفواه والأيدي والأعين تتفتَّح وهي تشاهدنا، فأحسستُ بأنَّ «أنجلينا جولي» و«براد بيت» خلفنا على السجَّادة الحمراء، نظرنا أنا ونور إلى بعضنا وغمزني قائلاً:

- يا عيني!

فضحكتُ وإذ بصديقتي تتوجَّه نحوي وتقول بكلِّ جرأة:

- «يا عمِّي ما عرفتك!»

وإذ بصديق عمِّي خلفنا وردَّ دفاعاً عنَّا قائلاً:

- «غرتي؟ لاقيلك شي شبّ!»

فأصبح وجهها أحمر كحبَّة طماطم، وراحت بسرعة تجرُّ خجلها، وصلنا إلى المعهد وإذ بطالب اسمهُ بشَّار صديق لنور يقول لهُ:

- «والله يا أبو سمرة صدتها».

فضحكنا وأخذ يصفِّق، ولم يتوقف التصفير، أوصلني عمِّي إلى باب المعهد وقال:

- متى تنتهين من الدروس؟
- «ع التسعة مرَّ عليّ».
- «ماشي».

وقبَّلتهُ مودِّعة وذهب، وكلُّ الأنظار موجَّهة لي، وإذ بفلم هنديٍّ -كما وصفه لي عمي- يحدث خلفي، فقد جاء حازم وكان يراقبنا من بعيد وأمسك يد عمي قائلاً:

- «مين الأخ؟»
- «ليش؟»
- كيف تجرَّأت أن تمشي معها؟ من تحسب نفسك لتضحك عليها هه؟

وأمسكهُ من ياقة القميص وهمّ بضربهُ وإذ ببشَّار يسرع ويمسك حازم ويقول:

- «روقونا!»

فيرد عمي نور قائلاً:

- لا أعرف ماذا دهاه.

ويقول بشَّار محاولاً حلَّ الموقف:

- حازم ماذا هناك؟
- مَن يحسب نفسهُ حتَّى يمشي مع وهم؟ أيحسبها فتاة سهلة ويرد أن يضحك عليها «ترا وراها زلم!».

فضحك عمِّي كثيراً فاستغربوا لكنَّهُ أكمل اللعبة بأنَّهُ عشيقي، فقال بشَّار:

- كيف رضيتْ وهم أن ترافقك؟ إنَّني أحاول معها منذُ أوَّل مرة رأيتها في المعهد وهي لم تلاحظني حتَّى.

فقال عمِّي:

- شطارة.

وتجمَّع عدَّة شباب وحلُّوا الموقف، فذهب كلُّ شخص إلى معهدِهِ، وجاء حازم وكأنَّهُ ثورٌ هائج، مرَّ من أمامي، ولم يكلِّف نفسهُ حتَّى بالنظر إلي «محنش، يعني زعلان»، فتحرَّشتُ بهِ قائلة:

- «وين يا حلو؟»

فنظر إلي نظرة غضب ولم يتوقَّف، تابع سيرهُ، وذهبتُ خلفهُ أحاول إيقافهُ لكن عبس «كردي» إذا قال لا يغير رأيهُ مستحيل، فأمسكتهُ من ذراعه عنوة وأوقفتُهُ قائلة:

- ماذا هناك حازم؟

بكلِّ قرف أجابني:

- من هذا الذي كنتِ تتمشَّين معهُ؟

هنا لم أستطع أن أمسك نفسي وأخذتُ أضحك، فاستغرب عندما قلت:

- بالله؟
- «إي إي هذا هو الأمر من هو؟»
- عمِّي!

ولم أستطع كتم ضحكتي فانصدم، وذهب من دون أن ينبس ببنتِ شفة، ومنذُ هذا الموقف وأنا أعتبرهُ كأخ أو أكثر.

تابعنا أنا وأسامة السير، كنتُ أحسُّ بأنَّهُ يريد أن يقول شيئاً، لكنَّهُ خائف من انفعالي، مررنا بمطعم الحاضريّ للوجبات السريعة، توقَّف أسامة قائلاً:

- أنا جائع، ما رأيكِ أن أدعوك؟ ما رأيكِ؟
- اممم...
- هيا لا تقولي لا، دعيني أحظى بشرف دعوتكِ على الغداء.
- حسناً حسناً، لا بأس.
- حسناً، انتظري ريثما أعود.

وجلستُ على سياج الحديقة المقابلة للمطعم، وكان مزدحماً بالطلاَّب والعشَّاق القدامى الذين كانوا يحفرون أسمائهم على الأشجار، والعشَّاق الجدد الذين يبحثون عن مكان مناسب للجلوس، أو بمعنى أصحَّ للتخفِّي عن أنظار المارة، وهناك من هو جريء يحاول سرقة قبلة من يد محبوبتهُ أو خدِّها من دون أن تنتبه، وهناك من بدأ بالغناء مع كاظم بتأثير مبالغ فيهِ، وكانت «الأراكيل» منتشرة بين الطلاَّب، كانوا يجلسون تحت المطر حلقات يتشاركون «الأركيلة» نفسها، كانت الأجواء رومنسيَّة طاغية، وكما يقول أدهم الشرقاوي: «كلُّهم حولي، ولكنِّي بدونك وحدي»، كان المطر قد خفَّ، أصبح كمطر صيف لا يبلِّل أحداً، رذاذٌ فقط، أخذتُ أنظرُ حولي بعين عاشقة، الجو ولا في الخيال، ولكن أين هو، هل هو يتمشَّى مع إحداهن؟ هل هو يستمع إلى كاظم مثلما أفعل أنا؟ هل هو من عشَّاق ماجد المهندس؟ لا أعرف! وأتمنَّى أن أعرف، لكنِّي أتمزَّق شوقاً، أرجوكِ يا سماء أمطري! لعلَّ نار قلبي التي ما زلت مشتعلة بهِ تنطفئ، كالعادة قاطع أحلامي أسامة وهو يقول لي:

- «وين سرحانة؟»
- آه، ولا شي.
- لم أجد «شاورما»، قالوا لي إنَّها نفذت، لا يتوفَّر لديهم الآن إلا البطاطا، تحبينها أليس كذلك؟
- هو كذلك.

وأخذنا نتمشَّى ونتناول شطائر البطاطا الساخنة التي تشعرك بالدفء بعد يوم ماطر، وعندما انتهينا رأيتُ زميلاتي في المعهد قد قرَّرن أن يتمشين بعدما خفَّ المطر، وتحسُّباً لأي شيء قلتُ لأسامة:

- عذراً صديقاتي يناديننني.
- حسناً، كان يوماً رائعاً.
- نعم، أظنّ ذلك.

ورحتُ برفقتهن، وبعد ساعات من المشي والتسكِّع المتواصل، أصابني التعب فقرَّرتُ العودة إلى المعهد، وعندما دخلتُ كان الأساتذة قد اتَّصلوا وأجَّلوا كلَّ دروسهم للغد، لأنهم لا يأتون في المطر، فقرَّرتُ الذهاب إلى البيت، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة ليلاً، أخذتُ أتمشَّى عائدةً إلى البيت، وكانت في الطريق صديقتي خديجة، فذهبنا سوية، عندما كنَّا في منتصف الطريق لمحنا أسامة يتمشَّى خلفنا، فبدأت خديجة تلمِّح للإشاعات التي كانت قد سمعتها في المعهد فقالت لي:

- وهم، ماذا يعني لكِ أسامة؟

نظرتُ باستغراب، لم أفهم إلى ماذا كانت ترمي، فقلتُ بكلِّ عفوية:

- لم أفهم، ماذا تعنين؟
- أقصد... وبدون أن تغضبي مني...
- حسناً حسناً! تحدَّثي.
- أسامة قد بثَّ في المعهد أنَّهُ...
- أنَّه ماذا؟
- أنَّه هو وأنتِ عاشقان.

هنا اجتاحني الضحك بشدَّة، لدرجة انتبهتُ أن من في الشارع قد لاحظوني، فصمتُّ ونظرتُ إليها باستغراب:

- من قال هذا؟
- أسامة.
- متأكِّدة؟
- لقد سمعتهُ ورأيتهُ بأمِّ عيني.
- حسناً هذهِ إشاعة عارية عن الصِّحَّة.
- متأكدة؟
- وهل من عادتي أن أُلمِّح؟ لو أن هناك أيَّ شيء كنتُ أخبرتكِ لا تخافي، لكنَّ الحبَّ وأنا «No»، مستحيل.
- لماذا؟ فهو شاب مميَّز وتعرفين أن نصف فتيات المعهد معجبات بهِ، أليس كذلك؟
- نعم لكن ليس أنا.
- لماذا؟
- هذا هراء، قال حبّ قال!
- امم... لا أعرف.

وتابعنا طريقنا إلى البيت، ومع أنَّ الجو كان ساحراً، إلا أنَّ خديجة نزعت مزاجي. ماذا أفعل بمن سكنني؟ من قرحني؟ من صهر نفسهُ في قلبي في قالب الحبِّ والألم؟ يحسبون مبدأ الحبِّ هو حبُّ الأجمل والأغنى، لا هذا مبدأ لا يشمل الحبَّ، هذا يُسمَّى حبَّ المغفلين، عندما أحببتهُ لم أنظر إلى جيبهِ، ولم أعرف شكلهُ، ولا أعرف للصدق إذا كانت لديهِ حبيبة أصلاً، لكنِّي أحبُّهُ أحبُّهُ أحبُّهُ بكلِّ شيء فيه، حتى لو كان لا يطيق لغتي المجنونة، أحبُّهُ، وإذا كان لا يستطيع تحمُّل صخبَ الأغاني الكوريَّة التي أدمنتها سأحبُّه، وإذا كان كارهاً للمعكرونة التي تجري في عروقي سأحبُّهُ، مهما يكن سأحبُّهُ بفضولهِ القاتل، إذا كان فضولي كـ«كونان»، و«شارلوك هولمز»، فأنا بالتأكيد من زمرة دم الفضوليين! سأحبِّهُ، سأحبِّهُ بأغانيهِ القديمة من سنة 1900 و«خشبة» أقصد من الزمن الجميل، سأحبُّهُ إذا كان عاشقاً للأدب الروسيِّ وكارهاً للعربيِّ، هو صادق في هذا الشعور، فالأدب العربي مُثخن بالعواطف الدسمة كالكوليستيرول، ثقيل على الدم والمعدة،

لا أشمل كلَّ الروايات فهناك روايات عربيَّة أفضل من روسيا بكاملها، فالإبداع العربيِّ صحيح أنَّهُ مقموع، ولكن إذا أنبت أثمر رطباً جنياً، أحبُّهُ «بنزاريَّتهُ» الزائدة، وهو الذي يحسب نفسهُ كالنسخة «الرِّقاويَّة» لنزار، سأحبُّهُ بشعرهُ الطويل، ببرودة أعصابهِ، بحدَّة اسمهِ «المُهنَّد» سأحبُّه، سأحبُّه بكلِّ ما فيه من تفاصيل، وسأبقى.

دخلتُ المنزل، وجدتُ العائلة شبه يائسة حزينة، كالعادة الكآبة تخترق الجميع لا تعرف فقيراً أو غنياً، سعيداً أو حزيناً، تدخل بدون طرق الباب، تجلس على مائدة قلبك تأكل ما تبقَّى من أمل، تمسح ما تبقَّى على ثغرها من بقايا ألم وتنثرهُ على روحك بملح زائد، وتحتسي قهوة بسكِّر لكسر الاقتصاد، تتحلَّى بقطعة من قلقك، ترتدي عبائتها –التي أعتقد أنها قد قامت بسرقتها من «هاري بوتر» أي «عباءة الاختفاء»– وتطرق الأبواب، لو كنا نراها لم نكن لنفتح أبداً.

- ماذا هناك يا أمِّي؟
- لا شيء؟
- كيف لا شيء؟ كأنَّكم في عزاء، ما الذي جرى؟
- لا شيء؟
- أوه! ماذا؟
- لا نستطيع تحمُّل مصاريف الدراسة لكِ ولإخوتكِ أكثر، قد أُثقلتنا الديون.
- يا ربِّي! وما العمل؟
- لا أعرف!

رحتُ وأنا أجر الخيبات الواحدة تلو الأخرى، نزعتُ سترتي وحقيبتي، وخلعتُ الحجاب، ورحتُ أتكوَّر على فراشي ككتلة ألم صغيرة، ماذا أفعل؟ ما العمل؟ فكَّرت، وفكَّرت، وفكَّرت.

جاء الصباح الذي سيجلي الحزن الذي سكن الليل، قلتُ: «سيجيء الصباح من الشبَّاك ويهرب الليل من الباب»، هرب ولكن ترك لي أحزانهُ، ماذا أفعل بها؟ رنَّ مُنبِّه هاتفي على الساعة الثامنة تماماً صباح يوم الأربعاء الذي لطالما أحببتهُ واعتبرتهُ يوم حظٍّ لي، تناولتُ الفطور: الزيت والزعتر، هما الوجبة الرئيسية والوحيدة على الإفطار في منزلنا، ارتديتُ ملابسي وذهبتُ إلى المعهد، وكانت فكرة في رأسي سوف توفر لي أقساط

المعهد، والقليل من المال لي أيضاً، ذهبتُ مع العصافير، وكان الصباح جميلاً في حيِّنا في شارع المنصور، رحتُ أتجوَّل وحدي وأدندن بأغنية «جايبلي سلام عصفور الجناين» لفيروز، وأحاول حَبْكَ كلمات الحوار الذي سوف أقولهُ للمدير، وصلت بعد حوالي عشرين دقيقة من المشي، دخلتُ بكلِّ ثقة و وجدتُ المدير جالساً وحدهُ في الغرفة، نظرتُ حولي، كنتُ أنا أوَّل طالبة في المعهد، كان خالياً إلاَّ من المقاعد المُتذمِّرة من أقلام الطلاَّب المشاغبين، والألواح النائمة في فترة راحة من أقلام المعلمين الحادَّة، هذهِ فرصة ذهبيَّة بالنسبة لي، دخلتُ واعتلتْ وجهي ابتسامةٌ هي صدق، أو خباثة، أو انتصار، لا أدري. المهم دخلتُ وألقيتُ التحية، فسلَّم علي وقال لي:

- أهلاً وهم، اجلسي.
- شكراً.
- ماذا هناك؟ أظنّ أنَّهُ في رأسكِ كلام.
- بصراحة، وبدون مقدمات...

وأنا التي أكره المقدمات دائماً في الكلام والكتب، أُحبُّ الدخول بكلِّ شيء مباشرةً، من دون لفٍّ ودوران.

- «بدي اشتغل بالمعهد».
- كيف؟

قالها المدير عبد الله مستغرباً طلبي.

- أُنظِّف الصفوفَ وأكنُس الأرضية وأغسل الأكواب. ما رأيك؟
- بصراحة نحتاج إلى خادمة، أقصد شخصاً يتكفَّل بهذهِ المهام.
- حسناً، إذن لقد وجدتها.
- ولكن كيف ستوفِّقين بين العمل والدروس؟ لا، لا.
- لا تخف عليَّ، سوف أوفِّق بينهما.
- اممم... حسناً حسناً، وما المقابل؟

هنا اعتلتني ابتسامة النصر.

- أن آخذ الدروس مجَّاناً، ما رأيك؟
- دعيني أفكِّر.

- أرجوك! إنَّني بحاجة ماسَّة لهذا العمل!
- حسناً حسناً وهم، ولكِ مني مع الدروس المجَّانية مبلغ ماليٌّ، ولكن متى يمكنك أن تبدأي؟
- شكراً جزيلاً، من الآن إذا أردت.
- ولكن الطلاَّب سوف يحضرون في غضون ساعة.
- وماذا في الأمر سوف أنتهي منهُ لا تقلق، أنا سريعة.
- حسناً، كما تريدين.

وبدأت بالعمل، أخذتُ المكنسة والمجرفة، ورحتُ أراقصهما في جميع الصفوف، واستغرب المدير من أنَّني طالبة وتعمل في مكان الدراسة، ألا تخجل من كونها لن تكون متساوية مع الطلاب. هكذا تسائل المدير وشعرتُ أنَّهُ يقولها بلسانهِ وليس بداخلهِ، لم أهتمّ، المهم عندي أن أكون أدرس، وأربح مالاً بأيِّ ثمن، لكي أخفِّف على أهلي أقساط المعهد المُكلفة، انتهيتُ عند وصول الطلاب، استغربوا وهم يرونني أحمل المكنسة والمجرفة وأبتسم لهم وكأن شيئاً لم يكن، بدأنا بدرس الكيمياء للأستاذ فهد المحمَّد، كنَّا أصدقاء ولسنا كأستاذ وطالبة، دخلتُ متأخِّرة بخمس دقائق بعد دخول الأستاذ والطلاَّب، لأنَّ المدير عبد الله كان قد طلب مني أن أعدَّ لهُ القهوة، ذهبتُ إلى غرفة صغيرة بجانب السلَّم، ذات باب نيليٍّ فاتح، يبلغ حجمها مترين بمتر، كان يوجد في الزاوية غازٌ سفريٌّ صغير، وآلة قهوة وخمسة فناجين، وسادس ذو أذن مكسورة، أذنهُ الوحيدة فُقدت فغدا فنجاناً اصماً، كانت ألوانها بيضاء مائلة إلى الصُّفرة، محاطة بإطار ذهبيّ، أشعلتُ الغاز بقدَّاحة خضراء شبه خالية من الغاز، وملئتُ الركوة من صنبور مقابل للغرفة، أعددتُ ركوة مليئة بالقهوة، كانت رائحة الهيل طاغية وقد ملأت المكان كلَّهُ، جهَّزتُ كلَّ شيء في صينية شبه مهترئة، وأغلقتُ الباب وأدرتُ المفتاح، وذهبت والكلُّ ينظر إلي، أعتقد أنَّهم كانوا يقولون: «منذُ متى وهم تُعدُّ للمدير القهوة؟»، لم آبه بأحد دخلتُ وقدَّمتُ لهُ القهوة، وكان أستاذ الفيزياء الأستاذ بدر الدين الجاسم رحمهُ الله، موجوداً أيضاً فقدَّمتُ له فنجان قهوة، فقال لي:

- «وك يسلمو».
- «يا أهلاً»

وشرب المدير والأستاذ بدر بشفاههم المسرعة لفم الفنجان وكأنَّها قُبلة حارَّة حارقة للشفاه، وقال لي الأستاذ بدر:

- «يا سلام! يعطيكِ العافية».

وابتسمت وركضت إلى الصف، كانوا قد بدأوا بالدرس، كان مقعدي الأخير، بجانب النافذة، كنتُ دائماً أحبُّ الجلوس في مؤخرة الصفِّ لكي أفهم الدرس بطريقتي الخاصَّة، بعيدة عن صخب الطلاَّب، وعندما طرقتُ الباب ودخلتُ، نظر لي الأستاذ فهد قائلاً:

- «وين يا حلو؟»
- آسفةٌ أعتذر عن التأخير.
- «فوتي فوتي».

ودخلتُ وجلست، وأكمل الدرس، وقد سرحتُ قليلاً، و ما أن أفقتُ من شرودي، وإذ بالأستاذ يحدِّق فيَّ، استغربتُ وخجلتُ في نفس الوقت، فغمزني، فقلتُ لهُ بتلبُّك واضح:

- ماذا هناك؟

قال بكلِّ جرأة:

- «معجب، ما يصير؟»

وإذ بالطلاب كلِّهم يلتفتون إلى المقعد الأخير حيثُ أنا، فأحسستُ أنَّني قد ذبتُ أو تبخَّرت، وتبدَّل لوني من الحنطيِّ الفاتح إلى الليمونيِّ الغامق، وبدأ الكلُّ بالضحك، فلم أستطع أن أقول غير كلمة:

- «أي، يصير».

وتابعنا الدرس، كان الأستاذ فهد المحمَّد رحبَ الصدر، يدرس في كلِّيَّة العلوم ويدرِّسنا في المعهد، كان في أوائل عقدهِ الخامس، كان نعم المُدرِّس للجميع، كنَّا في المعهد أنا والأساتذة كالأصدقاء تماماً، ولم أحسَّ بالخوف والرهبة منهم أبداً، خرجنا من الدرس وجاءت بعض الفتيات إليَّ، إحداهن –واسمها مديرة، فتاة من بلدة الأحوس في محافظة الرِّقَّة– قالت لي:

- «والله تلطيش!»

فضحكنا، وبدون أن أقول أيَّ حرف، استطردت قائلة:

- لماذا تأخرَّتي؟

- كنتُ أُعدُّ القهوةَ للمدير والأستاذ بدر.
- ولماذا أنتِ؟ لماذا لا يوظِّفون خادمةً أو مُستخدَمة أو ما شابه؟

هنا ضحكتُ وصُدمتُ قليلاً، وعزمتُ أن أخبر الجميع بالأمر، لم يهمَّني ماذا سوف تكون نظرتهم لي، وما هي الكلمات التي ستنطق بها شفاههم، الفقر لم يكن عيباً في يوم، ولكنَّ العيبَ في عقولنا. وكما يقول جبران خليل جبران: «إن أحلام الذين ينامون على الريش ليست أجمل من أحلام الذين ينامون على الأرض»، نعم، حلمي أن أكمل دراستي بأيِّ ثمن، لأنَّ الفقر لم يُعب إلاَّ الضعيف، فقرَّرتُ أن أخبرهم بكلِّ ثقة وفخر فقلتُ مُبتسِمة:

- أنا هي هذهِ الخادمة أو المُستخدَمة.

صُدم الجميع، كلُّ من في الصَّفِّ اتَّسعت عيونهم وانفتحت أفواههم على مصراعيها.

أكملتُ قائلة:

- نعم أنا، بدأتُ اليوم بالعمل في المعهد.

جاء أسامة مُبعداً الفتيات عن طريقهِ، وقال:

- «أنتِ وهم! طيب ليش؟»
- «ليش لا؟»
- أقصد لماذا قرَّرتي العمل؟ ما هو السبب؟
- السبب أنَّني لا أستطيع أن أدفع أقساط المعهد، وحالتي الماديَّة في تدهور، فقرَّرتُ أن أعمل، وعرضتُ العملَ على المدير ووافق.
- كيف وافق؟ كيف يسمح لطالبة أن تعمل؟ والدراسة؟
- أمر عاديٌّ. وماذا بعد؟ هل انتهى الاستجواب؟
- لا، ما نوع العمل؟
- التنظيف والكنس، وإعداد القهوة والشاي.
- هل جُننتي؟
- ها ها! ما بكم؟ هيَّا لا وقت لدي.

وحزمتُ كُتبي وذهبتُ إلى الصف الآخر حيث درسَ الفيزياء لدى الأستاذ بدر، دخلتُ وكنت أعشق هذا الدرس، لأنَّني أُحبُّ الأستاذَ بدر الدين وأحترمهُ، لقد ساعدني كثيراً ماديَّاً ومعنويَّاً، أرجو الرَّبَّ أن يرحمهُ ويُحسنَ إليهِ في قبرهِ، كان من خيرة الأشخاص الذين

تعرَّفت عليهم في حياتي، وكان قد توفِّي في كمين، توفِّي مقتولاً، كان في سهرة رياضية في مقهى مقابل مبنى المحافظة، وكان معهُ مجموعة من الأساتذة، منهم وليد أستاذ اللُّغة الإنكليزية، وإبراهيم أستاذ الرياضيات، وأستاذ العلوم أحمد السخني وعدد من الأساتذة، وبعد انتهاء المباراة قرَّر أن يوصل كلَّ الأساتذة الذين كانوا معه بسيَّارتهِ السوداء، فأوصل الجميع، وكان بيتُ آخر أستاذ عند الفروسية، وهناك وقعت الجريمة، أعتقد الجميع أنَّ السبب حقد، ولكنَّ السبب الرئيسيَّ مات مع الأستاذ بدر رحمهُ الله. طلع الصباح ولم يعد الأستاذ بدر إلى البيت، كان هناك شابَّان يتمشَّيان على الطريق فشاهدا الجثَّة، اقتربا وامتلأ قلباهما بالرعب لبشاعة المنظر والموقف، كان قد تصارع مع قاتله، فقد كانت هناك آثار أظافر وخدوش على وجههِ، وطلقة مسدس في رقبتهِ –حسبَ ما قيل– وتمَّ دهسهُ بسيَّارته – التي هي ملكهُ!– مرتين أو أكثر، كان المنظر أبشع من أن يوصف، كان كجيفة هامدة قد غطَّاها الذباب والحشرات، عندما غادرت روحهُ، قُتل مبتسماً، فقد كانت هناك ابتسامة تعتلي ثغرهُ الحنون الملائكيَّ الهيئة، كان دائماً مبتسماً، وقد كتب القاتل على ورقة ووضعها على صدرهِ: «تمَّ أخذ الثأر منك»، وأيقن الكلُّ بأنَّها حسد وغيرة لشدَّة طيبتهِ وكرمهِ وحُسن أخلاقهِ ومعاملتهِ الرحيمة مع الطلاَّب وكأنَّهم أبنائهم أو أخوتهِ. مات رحمهُ الله عن عمرٍ يناهز الثلاثين عاماً، وقد تم التبليغ عن الجثَّة في الصباح الباكر من ليلة ما بعد الحادثة، ونُقل إلى المستشفى. وقد تمَّ تشريح الجثَّة وعرضها على الطبيب الشرعيِّ في المستشفى الوطنيِّ بالرِّقَّة، وكُتب في الضبط: «القتل عن عمد، والقاتل مجهول» فاضطرت روحهُ أن تغادر حاملة معها هذا اللغز الكبير، خرجت جنازتهِ من المستشفى، وقد خرج فيها أكثر من نصف أهالي الرِّقَّة، أكبر جنازة في الرِّقَّة من السيَّارات والبشر، وتمَّ دفنهُ في مقبرة «تلِّ البيعة» في المدينة، وفي اليوم الذي بعدهُ قرَّرتُ أنا وأمِّي أن تعمل معي في المعهد وتساعدني فيهِ، فأصبحنا نعمل فيه سوية، ذهبنا إلى العزاء، كان بيتهُ يقع في حارة «الحني» بعد قصر المحافظة في المدينة، لم أستدلَّ على البيت بشكل مباشر، لأنَّني أعرف منزل أهله، فعندما ذهبنا لم نجد أحداً، ومع أنَّنا كنَّا أصدقاء أنا وأختاهُ حنان ودلال في المعهد، فخرج أحد الجيران على صوت طرقي ونحيبي أمام الباب، وقال لي إنَّه لا يوجد أحد، فالعزاء قد أُقيم في منزل عمِّهِ في الحارة التي بعدها مباشرةً، فشكرتهُ وأمسكتُ يدَ أمِّي ورحتُ كالمجنونة أسرع وأبكي، وجدنا تجمُّعاً أمام بيتٍ كبير ذي حجر أصفر، وباباً أسود كبيرٍ من الخارج

وعلى بعد أمتار منهُ كان يوجد باب آخر صغير، كان كبيراً كثيراً أشبه بفيل، دخلتُ أنا وأمي وخلعنا حذائينا السوداوين، ودخلنا إلى أوَّل غرفة في المنزل، عرفتُ أنَّها غرفة النساء من صوت العويل الذي قد أبكى أحجار الرِّقَّة وليس قلبها فقط، دخلتُ وإذ بحنان ودلال جالستين في الداخل، وراحتا تصرخان عندما رأتاني من بعيد قائلتين:

- «وهم يا وهم! راح الغالي! وما ضل غالي! راح الغالي غدر! وما خلالنا شي منو! وهم يا ريت روحي ولا روحو! يا بدر يا حبيبي! تعال وهم بدها درس! تعال طلابك كلهم هين!»

وركضتا واحتضنتهما وتلقتنا الأرض وجلسنا وبدأنا ننتحب نحيباً يُمزِّق القلوب، وازداد صوت العويل والنحيب، وقلتُ لحنان:

- «يا حنون، لك والله كان مثل أبي وأخي وصديقي! وأنا مدّينة إلو بحياتي! لولاه ما كنتُ سجَّلت معكم ولا تعرفت عليكم، كان مثل أبي! مثل أبي!»

كانت الغرفة كبيرة، تقريباً خمسة عشر متراً طولاً و خمسة أمتار عرضاً، امتلأت بالطلاب وأهاليهم والأقارب، وبعد النحيب لساعات بين أهل المرحوم، كانت الساعة قد دقَّت الرابعة عصراً، قررنا الذهاب إلى البيت، دافنة الألم في منزل صديقي ومعلمي وأستاذي بدر الدين الجاسم رحمهُ الله، هممتُ بالخروج، فأضعتُ حذائيَّ بين جبال الأحذية التي تراصَّت أمام الباب، استغرقتُ عشر دقائق لإيجادهِ، فارتديتهُ وذهبتُ مودِّعةً أهلَ المرحوم وخرجت، وإذ بسيَّارة سوداء تقف أمامنا وينزل منها الأستاذ أحمد السخني وعدد من الأساتذة، قمتُ بإلقاء التحية عليهم وعزَّيتهم بفقيدي وفقيدهم، وأخذتُ أجرُّ يدَ أمِّي وقدميَّ ذهاباً إلى البيت، وفي الطريق قالت أمي:

- لنذهب إلى المعهد وننظفه لكي لا آتي في الصباح، فلدي ألم في الظهر.
- حسناً ماما كما تريدين.

فذهبنا إلى المعهد، كان خالياً تماماً إلاَّ منا، فدخلتُ غرفة المدير وباقي الصفوف، وتذكَّرت درس الفيزياء والأستاذ الذي لن أنساهُ ما حييت، وبدأت تتراءى لي أصواتهُ وصورهُ في المعهد، فحاولت إمساك دموعي المتحجِّجة للسقوط لكي لا تسقط، ولكن عبثاً، فحبِّي لمعلمي أعظم من السقوط الذي كان يشرحهُ لنا في الفيزياء، كان يقول لي: «وهم! إمَّا أن تصمتي وتدعيني أشرح، أو قومي وأعطي الدرس عنِّي!»، لشدَّة عشقي وحبِّي للفيزياء كانت

مثل اللعب بالنسبة لي، وكنتُ دائماً على نقاش وفضول وأسأله أسألة كثيرة حولها، لدرجة أنَّه مرَّة قال لي الأستاذ: «أُحسُّ أنَّني أُعطي الدروس فقط لوهم، أعطي لزملائكِ فرصة!»، فكنتُ أمازحهُ قائلة: «وفضولي وعقلي السَّؤول ماذا أفعل بهما؟»، وكان يقول: «آه منكِ يا وهم!»، فكنَّا نضحك، كان خير بشريٍّ عرفتهُ، أخذت أرى أمي ودموعها تُغرق عينيها، فقلتُ لها:

- ماما أنا سأنظِّف.
- سوف أساعدكِ.
- لا، أنتِ متعبة ولستِ بخير.
- لا أنا بخير.
- أرجوكِ فقط ابقي جالسة.

وبعد دقائق جاء مدير المعهد الأستاذ عبد الله، كان في عقدهِ الثالث من العمر، وقد بدأ الصلع يحتلُّ رأسهِ من الأمام، كان قد درس الاقتصاد وقرَّر إنشاء المعهد، دخل فوجدني أنا وأمي نتناقش، قال:

- السلام عليكم، لم أكن أتوقَّع أن أجد أحداً.

قالت أمي:

- أردتُ التنظيف قبل الغد.
- فعلتي حسناً، وهم أعدِّي لنا بعض القهوة.
- حسناً.

ذهبتُ وأعددتُ القهوة وأدخلتها إلى غرفة المدير وقلتُ:

- سوف أذهب وأنظِّف، أمِّي ابقي هنا.
- حسناً.

ذهبتُ آخذت المكنسة الحمراء الطويلة والمجرفة الخضراء الداكنة، ورحتُ أفرِّغ حزني وغضبي في العمل، بعد ساعات انتهيت، وكنتُ قد رويتُ شجرةَ العنب التي في مؤخرة المعهد، التي لطالما أحببت الجلوس عندها، وإذ بي أشعر بأحد خلفي، خفتُ بشدَّة، وعندما أدرتُ ظهري إذ بإسماعيل خلفي، كان قد دخل وكلَّم المدير وعرف أنَّ اليوم عطلةٌ حداداً على وفاة الأستاذ بدر، فخرج تاركاً أمِّي والمدير يكملان الحديث الذي صار حديث المدينة، وقد جاء إسماعيل ليعزِّيني بفقيدي فقال:

- البقية بحياتكِ.

خفتُ وتفاجأت من وجودهُ، فالتفتُّ قائلةً بخوف:

- منذُ متى وأنت هنا؟
- منذ دقائق، وقد ألقيتُ السلام، ولكنَّكِ شاردة ولم تجيبيني.
- آسفة، كما تعرف كان أكثر من معلِّم عابر بالنسبة لي.
- نعم أعرف، كان من خيرةَ المعلِّمين، كثيرون يتحدَّثون عنهُ بحبّ، وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟
- إنَّني أسقي العنب.
- نعم أراكِ، وأمُّكِ هنا أيضاً، هل لي بسؤال؟
- تفضَّل!
- ألم تشعري بالحرج من عملكِ وعمل والدتكِ هنا؟ ألم تشعري بالنقص من هذا العمل؟ أن تمسحي الأوساخ والأغبرة وتكنسي الأرضيات من تحت أقدام الطلاَّب؟ ألم تشعري بالذلِّ؟ فأنتِ أفضل منهم دراسياً وتعملين تحت أقدامهم هنا...

صُدمتُ كنت وكأن رأسي ضُرب بدلو ماء مثلَّج، قاطعتهُ قائلة:

- أقلُّ منهم ماديَّاً أيضاً، لهذا سوف أكنس تحت أقدامهم لأدرس.
- آسف، لم أقصد الإهانة...

قاطعتهُ مرة أخرى:

- لا عليك!
- آسف على الإزعاج وهم، أستأذنكِ.
- لا عليك. فكما قال أيمن العتوم: «عليك أن تكون قوّياً من أجل أن تعيش، الأمنيات حبال المُغفَّلين، أمَّا المُبصرون فسيّان عندهم ليل أو نهار إذا استبصروا، وعلى وقع الإرادة يصنع الأقوياء أنفسهم، ويحمونها من الغرق في الأوهام»، لهذا سُمِّيتُ «وهم» أي كلُّ شيء زائل لا محالة، ومنها الحزن والألم.

ذهبَ وهو يشعر بالخجل من كلامهِ، إسماعيل هذا شابٌّ من بلدة الكرامة «بريجي» ذو بشرة سمراء بلون «الشوكولاته» رجولته صارخة، وعيناه خضراوتان قاتلتان، ولهُ أسلوبهُ الغامض والغريب، فكان دائماً يرتدي بنطالاً أخضر داكن اللون وقميصاً ذا أكمام

طويلة أسود اللون، –وأحياناً أبيض– وقبَّعة سوداء جميلة. هو ذو شعر أسود طويل، ولكن ليس كثيراً، جذَّاب، مخيف، بصراحة دائماً كنت أتحاشى النظر إليه بسبب تلك الزمرُّدات التي في وجههِ، إنَّها مخيفة، شهية، قاتلة، غامضة، أكثر من مرة أمسكت بقلبي من الخوف عندما نظر إليَّ، ومرَّة كنتُ مُسرعة أريد الخروج في يوم ماطر، كنتُ قد ارتديتُ معطفاً أسود طويلاً، يصل حدَّ الركبة تقريباً، مُطرَّزاً بحبكة بيضاء على جوانبهِ، وفيه ثقبان على جانبهِ الأيمن عند الجيب الأيمن، ولهُ خمس أزرار فضية كبيرة مخططة بالأسود الداكن، وكنتُ أحمل حقيبة يد –وليست حقيبة الظهر التي عليها كأس أفريقيا– كانت حقيبة بيضاء كبيرة مُرسَّمة بمربَّعات ذات ألوان هادئة، وبنطالاً أسود وحذاء أسود كذلك «بوط» وحجاباً أسود. لا أدري لماذا أحببتُ بهذا اليوم المطري أن أُشعل حداداً أسوداً، مطر وأسود يعني الحزن على حبيب، نعم الحزن على حبيب، لطالما أقمتُ عزاءً في داخلي ولم يأتِ أي أحد ليعزيني بحبَّي، فشربتُ وحدي أرطال القهوة المرة المُعتَّقة، فأُصبتُ بألمٍ في المعدة بسببها، مرارة القهوة تعني مرارة الحياة، لهذا السبب يشربونها في المأتم والعزاء لتواسيهم على مرارة الفقد.

كنتُ قد وصلتُ إلى آخر درجتين من السُّلَّم المتَّجه إلى الأعلى خارجة من المعهد لأتناول الطعام، ولكن صديقتي نادتني من الخلف قائلة:

- «وهم أهم شي معدتك صح؟»

فاستدرتُ إلى الوراء وقلت:

- أكيد!

وأدرتُ رأسي لأخرج، وإذ بإسماعيل أمامي يريدُ الدخول، اجتاحتني عيناه بالرعب، يطلق رعبهُ دون مقابل، أسمرُ مخيف، فإذ برعشة خوف تسلَّلت في كامل جسدي، أردتُ السقوط إلى الخلف فأمسكني من ساعدي لكي لا أقع، ومن أجل أن أتوازن، كان قريباً مني لدرجة أنِّي شعرتُ بأنفاسهِ المُضطربة مثلي، وازدادت خفقات قلبي كأنَّه يريد الانفجار، فابتعدتُ عنهُ فوراً، وكنتُ قد احمررت واخضررت وازرققت، وهو أيضاً، غامض قاتل، ولكن خجول، أفلت يدي، وذهبتُ بسرعة بدون أن أقول شكراً حتَّى، وإذ بطلاب المعهد ينظرون إلينا، وكأنَّنا فلم هنديّ، لماذا الكلُّ يفهم الخطأ صحَّاً والصحَّ خطأً؟ وعندما أخذتُ أسير في الشارع باتجاه مطعم الحاضري للوجبات السريعة، كانت بعض من زميلاتي في المعهد واقفات ينتظرن الطلبات، وجاء أخي محمود الدخيل، هو ليس أخي من لحمي ودمي، أخي

فقط بالأزرق كما اتفقنا أنا وهو، لأنَّنا دائماً نرتدي الأزرق سوية بالصدفة، سألوني مرَّة:

- هل تتواعدان؟
- لماذا؟
- لأنَّكما ترتديان نفس اللون دائماً.

فقرَّر أن يقول لهم هي أختي في اللون الأزرق، فضحكنا كثيراً.

تقدَّم محمود منِّي وفي يدهِ كوب قهوة قائلاً:

- كيف حالك «وهوم»؟
- أهلاً، بخير، وأنتَ؟
- أشكر الرَّبَّ، خذي، لم يطاوعني قلبي أن أشرب القهوة من دونكِ.
- «عنجدّ؟»
- نعم، خذي هذهِ قهوتكِ، اشربيها قبل أن تبرد.
- حسناً، شكراً «كفو أبو حميد»، لكنَّني لا أشربها ساخنة، سوف أنتظرها لتبرد.
- «آه! باردة قلتيلي؟ كقلبك صحيح؟»
- ها ها أظنّ!

إعادة لك مالك، سترد لي كرامتي!



«لا أحد بإمكانهُ أن يُذلَّ الآخر، إلاَّ إذا سمح لهُ الآخر بإذلالهِ».

باولو كويليو

وغارت بي الأيام، فهي ماكرة كثعلب كابن عرس، تذهب وتأخذ خلسة من دون أن تطلب، منذ بداية الأحداث في سوريا قام المدير عبد الله بإغلاق المعهد ورميي أنا وأمِّي والطلاَّب بالعراء، ليس باليد حيلة، سافر بعد إغلاقهِ إلى تركيا، لم يتألَّم أحد لإغلاقهِ بقدر ما تألَّمتُ أنا، لماذا؟ الكلُّ يستطيع التسجيل في معهد آخر، والمداومة فيهِ وبدأ الدروس من جديد إلاَّ أنا، فالحالة الماديَّة لي كانت قاتلة، وما العمل؟ أنا وأمِّي والعائلة لا نستطع فعل أي شيء من دون المال، فقرَّرت أمِّي البدء بالبحث عن معهدٍ آخر للعمل فيه، ومن أجل دروسي، لم ولن أتركها وحيدة، ففي العمل القديم لم تتركني وحيدة رغم مشاجرتي مع والدي بسبب العمل، ومشاجرتها معهُ، إلاَّ أنَّني أقنعتهُ فوافق، وقرَّرت أمِّي المشي فوق كلِّ الكلام والمبادئ والعمل معي، فعندما علم خالي الكبير أنَّ أمِّي عادت للبحث عن عمل في مكان آخر اتصل في الساعة الحادية عشر من صباح يوم الخميس وعاتبها صارخاً:

- أختي لا تعمل خادمة! فهمتي؟

ردَّت أمِّي والدموع تُغرق عينيها، حاولت تدارك الأمر، وأن تضبط مشاعرها، لكنَّ الألم كان أقوى من أي شيء، فقالت:

- خادمةٌ بشرف، أفضل من أن أموت جوعاً.
- أنتِ متزوِّجة، وهو مُجبر أن يُطعمكِ.
- إنَّهُ يفعل المستحيل، العائلة كبيرة وشخص واحد لا يستطيع أن يُعيلنا كلَّنا.
- أنا سوف أبعث لكِ ثمن ربطة الخبز.
- هه! هل الأمر متوقِّف على الخبز؟ لا تخف إنَّه متوفِّر، ولكنَّنا نحتاج المال للطعام والدراسة والدواء، لا يتوقَّف كلُّ شيء عند كسرة الخبز، الربُّ لا ينسى أحداً.
- لكنَّكِ أختي، وسوف تلاحقني سمعة الأخت الخادمة أو المُستخدَمة لدى الناس.
- أسوف يقولون تشحد أو تعمل أعمالاً قذرة –لا سمح الله– أنا متزوِّجة وسوف أُعيل أولادي وزوجي، لو اضطررتُ لأن أكسِّر الصخور! هذا ما لدي، وداعاً.

وأغلقتُ السمَّاعة، لم تقل إلى اللقاء، بل ختمت المكالمة بوداعاً، لأنَّها اكتفت. ذنبنا أنَّنا فقراء، الله هو من يكتب الرزق، انفجعت أمي بخالي وأيَّما فاجعة، كما قال فهد العودة: «نصبح مقتولين خارجيَّاً عن الحياة عندما تأتي الطعنة من الشخص الذي لم نظنَّ أبداً أنَّهُ سيخذلنا»، خالي لم يخذلها، بل أصابها بفاجعة لن تشفى منها، من يتكلَّمون عن أمِّي وأبي

بالسوء سوف أقطع ألسنتهم فقط، اكتفينا إهانات وإذلالات لأبي وأمي، مع العلم أنَّه من راتب أبي الحكومي الذي بدأهُ بـ 2500 ليرة سورية أمِّي كوَّنت لنا بيتاً ولباساً وطعاماً، كلُّهم منظِّرون فقط، شعب بقريٍّ لا يُحب إلا التنظير، أمِّي من هذا المبلغ قد وفَّرت مبلغاً أكبر وأكبر وأكبر، وقام أبي بسحب ثلاثة قروض وراء بعضها لكي نشتري منزلاً ولو بغرفة، الجدران أرحم من الآجار مهما تكن، فكلُّ المُنظِّرون الأقارب لا يملكون حائطاً وليس بيتاً، ويتفوَّهون بالهراء علينا، افعلوا نصف ما فعله أبي، وأبكوا نسائكم كما تقرح عينا أمي، وعيشوا الذلَّ والحرمان والقلَّة الكثيرة، وبعدها تعالوا وواجهونا وقولوا لنا لا تعملن كخادمات. أن أعمل أفضل من أن أجعل حياتي «ملطشة» للكلِّ، القريب منهم والغريب. ذهبت أمِّي تُمشِّط الشوارع وتضفرُ الحارات بحثاً عن عمل، وبعد أيام من البحث المتواصل وجدنا أنا وهي معهداً في منطقة الفردوس بالرِّقَّة، بجانب مجمع الخالدي، دخلت أمِّي وتحدَّثت معهم وتمَّت الصفقة، وبعد ساعات اتَّصلت بي في البيت من المعهد وقالت لي:

- تعالي إلى هذا العنوان.

ارتديت ملابسي بسرعة وخرجتُ راكضة طائرة لا أدري كيف وصلت ودخلت، وكلَّمت أمِّي التي كانت في المطبخ تُعدُّ الشاي، دخلتُ للإدارة بكامل أناقتي، بسيطة الطراز بـ«جينز» أزرق، وكنزة سوداء وحجاب أزرق، وحقيبة الظهر الإفريقية، ألقيتُ السلام ووقفت، قال لي المدير:

- من أنتِ؟
- أنا وهم ابنة...

وقاطعني بكلمة فجَّرت صدري نصفين قائلاً:

- ابنة المستخدمة.

صمتُّ، ليس هناك ما يدعو للخجل، العمل ليس عيباً، العيب أن تكون بلا عمل، قلتُ لهُ بكلِّ ثقة:

- نعم، إنَّها أمِّي.
- حسناً، تعالي، هذا هو برنامج الأسبوع الدراسي هنا.
- ومتى أستطيع البدء؟
- متى أردتي.

- من الآن.
- حسناً.

ونادى طالباً اسمهُ إسماعيل العبيد قائلاً:

- إسماعيل، خذها إلى صفِّ الأستاذ فهد المخلف لتبدأ بدرس العلوم.
- حسناً، تعالي من هنا.
- «أوك!»

تبعتُه، طرق الباب ودخل، دخلتُ خلفهُ، كان الصف ممتلأً بالطلاَّب والوجوه الجدد، الأستاذ جديد، كلُّ شيء جديد، أصعبُ شيء في الحياة أن ترمي الماضي وتبدأ من جديد، أمضيتُ أيَّاماً في هذا المعهد تجرَّعتُ فيها من الذلِّ والإهانات ما يكفي مخزوناً احتياطياً لي لبقية الحياة. كان لي عزاءً بعضُ الأصدقاء منهم «سنان الأحمد» والآن هو طالب هندسة معماريَّة، كان وما يزال نعم الأخ والصديق، عندما أحادثهُ أشعر بأنَّهُ يتمزَّق شوقاً إلى الرَّقَّة، مع أنَّهُ في سوريا، لكن هذا ما يسمَّى بالغُربة الداخليَّة، قال لي مرة كلمات حفرتْ منجمَ شوقٍ وحبٍّ للرَّقَّة في داخلي، قال:

«مهما ابتعدتُ عن الرقة، ومهما اغتربتُ، يبقى ترابَها هو الوطن بالنسبة لي، ومهما طالت الحربُ والغربة أقسم بأنَّني لن أعشق ولن أحبَّ بعدها أيَّة أنثى بعد أرملتي وأرملة سوريا. مات العشقُ تحت أقدامها، ولو بقي في حياتي يومٌ واحد سوف آتي وأتطهَّر بفراتها وأمرِّغ نفسي بترابها، ففيها طهارة الدنيا بالنسبة لي. سوف آتي وأموت هنا. الرَّقَّة، وبعدها لا شيء».

بعد هذهِ الكلمات أخذتني موجة بكاء عصفت بكلِّ شيء في داخلي، فجَّرتني وأخذت تجرحني الشظايا «الرقة، وبعدها لا شي»، آهٍ يا سنان! أدعو الرَّبَّ أن تعود إلى محبوبتك «الرقة». أيُّها العاشق! كان سنان هادئاً بكل ما للرجولة من ثُقل، غامضاً صامتاً بصراخ يصمُّ الأذان فلطالما ما لقَّبتهُ بالرجل الغامض، و«سندريلا الرمَّة» كانت تصغرني بعام، نتشابه بكلِّ شيء: الأفكار والأحلام وحتَّى طريقة الكلام وطريقة اللباس، هي من أقاربي البعيدين جداً، لكنَّها كانت خير عزاء لي في أوقات الوحدة التي كانت تجتاح قلبي. وحيدة رغم أنَّني في ازدحام، أحياناً الشعور بالوحدة لا يرتبط بكثرة الأشخاص حولك بل بكثرة الأشخاص الذين يفهمونك، ويشعرون بك.

و«إسماعيل العبيد» أخُ أستاذ اللُّغة العربيَّة «محمد العبيد» من مزرعة «يعرب»، فتى ريفيٌّ جميل يصغرني بعامٍ أيضاً، كان حسنَ الأخلاق ولهُ أسلوب مُحبَّب يدخل القلب، دائماً اعتبرني ملجأ في أوقات الهزَّات العاطفية التي تعصف بهِ، لأنهُ عاشق لفتاة فتاة تصغرهُ بعام، غبيَّان حقاً، كانا طفوليين كثيراً، وكنا دائماً نصلح بينهما، وفي مرَّة انزعجتُ منهما فصرختُ بهما: «عاشقان أحمقان!»، وذهبتُ، وظهرت إشاعة من قِبَلِ بعض الطالبات اللواتي سامحتهن بعد ذلك مفادها أنَّني أُحبُّ إسماعيل وأُخرِّب بينهُ وبين محبوبتهِ الغبية، لماذا هذا العالم مليء بمثلثات الحبِّ؟ ألاَّ تفعل خيراً أفضل أحياناً، لأنَّهُ في وطننا افعل خيراً تلقَ شراً.

وهناك «نسرين»، كنَّا صديقتين بشدة لدرجة جعلت الكلَّ يغار منَّا ومن طريقة حُبِّنا لبعضنا، كانت أوضاعها العائلية غير جيِّدة بسبب خلافات بين الأمِّ والأب، لكنَّها كانت دائمة الابتسامة وتوزِّع الأملَ بلا مقابل.

كانوا خير زملاء وأصدقاء. ولكنَّ الفاجعة التي وقعت لي –الطعنة في الظهر– من صديقة اعتبرتها كأخت، وأحببتها دائماً بشدَّة، كنَّا نأكل معاً، نستمع إلى الأغاني معاً، ندرس معاً، ولكن «المعاً» الزائدة جلبت مفعولاً عكسيَّاً إلى درجة الغدر، ففي يوم كنتُ متوجِّهةً إلى المعهد، وعندما دخلتُ في حارتهِ كانت هناك سيَّارة محروقات تقف أمام الحديقة التي تقع أمام مجمع الخالدي، وفجأة انفجر البرميل وحلَّق عالياً صيب من السماء، لكنَّهُ صاعد لا نازل، ارتفع مسافة عالية كصاروخ، وعاد هابطاً على بقية البراميل، وشبَّ حريقٌ أغرق الحديقةَ، وأخذ السواد يغطِّي المكان، ركضتُ من الخوف والرعب داخلة إلى المعهد، وبدأت الأصوات تغتصب المكان والأذان وكلَّ شيء، ولم تعد تسمع غيرَ الصراخ والصراخ والمزيد من الصراخ وزمجرات الخوف، وكأنَّ القيامة قد هبطت، وطوقَّتْ المكانَ من دون أن تدع أيَّ مخرجٍ أبداً، وضعتُ حقيبتي على مقعدي في الصَّفِّ الأوَّل على اليمين، كان مقعدي قبل الأخير من جهة اليمين أنا وسندريلا، وكان مقعد سنان بجانبنا على الجهة اليسار، رميتُ حقيبتي، وكان قلبي قد وخزني، أي أنَّ هناك مصيبة على وشك الحدوث، لم آبه وذهبت مع بقية الطلاَّب للمساعدة في إطفاء النار، خرجتُ وانقبض قلبي بشدة، أقسمُ أنَّني أحسستُ بألمٍ قوي اجتاحني، عدتُ راكضة إلى المعهد، وكانت خلود وحدها في المعهد الخالي إلاَّ منها ومن الشجيرات والمقاعد، خرجتْ راكضةً متلبكة وكادت تتعثَّر، استغربت منها، وعيني على

حقيبتها وهي متشبثة بها وكأنَّها طفلها الرضيع، دخلتُ إلى حقيبتي كانت مقلوبة رأساً على عقب، ولم أجد فيها هاتفي، هنا جُنَّ جنوني ولم يعد هناك من عقل في رأسي، أخذتُ أبحثُ، مَنْ أسأل؟ لا يوجد في المعهد إلاَّ أنا والجدران، هل الجدران لها أيدٍ؟ منذُ كنا أطفالاً صغاراً نعرف أنَّ الجدران لها أذان، فلا تتكلَّم بصوتٍ عالٍ لكي لا تسمعنا، ولكن أن يكون لها أيدٍ فهذا ضربٌ من الجنون! لا مُحال! أخذتُ أنتحبُ كالمجنونة كأمٍّ أضاعت طفلها في وسط الحطام لا تدري أين تبحث أو أين تذهب. هدأ الحريق وعاد الطلاب إلى المعهد وأنا أنتحب، جاء الكلُّ قائلين:

- ماذا حدث؟

والكلُّ يفكِّر أنَّني آذيتُ نفسي أثناء محاولة إخماد الحريق معهم، جاءت نهلة وسندريلا ونسرين، وجمع الطلاَّب مستغربين ممَّا يحصل، فأخبرتهم بكلِّ حرقة عن الفقيد الذي فنيت أربع سنوات من العمل والتضرُّع ودعاء الله للحصول عليه، وتأتي هي بكلِّ بساطة وتنتشلهُ مني، بأيِّ حقٍّ؟ وبأيِّ دين؟ وبأيِّ قانون يحقُّ لك أن تسرق تعب غيرك؟ قلتُ ببكاء مُتقطِّع:

- لقد سُرقَ هاتفي.

ردت سندريلا وهي تحتضنني:

- لا تقوليها.
- نعم ساندي، لقد سُرِقت، «كيف، أين، متى، لماذا؟» لا أدري! لا أعرف! ولكنهُ قد سُرق ضاع هباءً!
- اهدئي، لا بدَّ أن نجدهُ، مُتأكِّدة من أنَّك أحضرته إلى هنا أم نسيتهِ في البيت؟ تذكَّري.

وجاءت نسرين تفتِّش حقيبتي قائلة:

- غير معقول، لا بدَّ أنَّكِ نسيتهِ في المنزل أو الشارع، سرقة وهنا؟ مستحيل.

لماذا مستحيل؟ نحنُ وسط قطيع ذئاب، قانون الغاب: الأكبر حجماً والأكثر مالاً وسلطة لهُ كلُّ ما يريد. يسلب حتَّى الأرواح إذا أراد، وهذا ما حدث، كنتُ وسط قطيع ذئاب، لكنِّي لن أرضى أن أكون كأرنب أبداً، سأتمرَّد على هذهِ الذئاب، سألوي هذهِ اليد التي تريدُ اقتلاع رأسي، لن أكون عبداً، ولن أسمح لكم بمعاملتي كأنَّكم سادة عليَّ. الساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس، والساكتُ عن الحبِّ أيضاً، أين أنت؟ تجيرني بمصيبتي، تحتضنني وتهدهد على قلبي؟ لكنَّك أين مني؟

رحتُ أجوب المعهد وأفتِّشهُ شبراً شبراً، ولكن عبثاً لم أجد شيئاً «فصُّ ملح وذاب»، ذهبتُ إلى غرفة المدير –وكان يُدعى عبد الله أيضاً– هو خريج كلِّيَّة الشريعة في جامعة دمشق، يعني عالِمٌ بالحقِّ والباطل، ولكن هنا –كما ذكرتُ سابقاً– لا شريعة إسلاميَّة ولا علمانيَّة ولا أيَّة إنسانيَّة، هنا سُنَّ قانون الغاب، فدخلتُ وكانت الدموعُ قد حفرت في وجهي أخاديد وشوَّهت ملامحي، والكحلُ قرَّر حزم أمتعتهُ راحلاً من عينيِّ، لأنَّهُ لا يحبُّ الحزن، فتركني ولكنَّه ترك أثار قدميه على وجهي وذهب. وكانت آثار الدموع على رقبتي، كفضيحة علنيَّة شوَّهتها بدون خجل وهربت، بقيت عارية من كلِّ مشاعر وجهي إلاَّ من الدموع وتلك الملابس التي سترت جسدي وعرَّت قلبي العاري منذُ ستِّ سنوات، كان في الغرفة المدير عبد الله، وأخ زوجتهُ أستاذ الرياضيات عكرمة وأخوهم مصعب أستاذ العلوم، وأسامة أخوهم الأكبر يعمل كمساعد مدير لعبد الله، قال أسامة:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟
- لقد سُرقت!
- ماذا؟

وأخذ المدير عبد الله يضحك بكلِّ خبث، أجبتُ:

- نعم، وضعتُ حقيبتي في الصَّفِّ ثمَّ عدتُ ولم أجد هاتفي، لقد سُرق.

وأجاب عكرمة ببرود:

- وما المطلوب؟

صُدمتُ لطريقة تعاملهم معي بكلِّ برود وحقارة، وكأنَّ قلوبهم من صوان، لم تُحرِّك الدموعُ وآثارها أيَّة شعرة في قلوبهم، هنا استجمعت كلَّ ما لدي من قوَّة ووجدتُ في حقيبتي منديلاً ومسحتُ دمعتين كانتا عالقتين على ناصية أنفي، وتقدَّمتُ خطوةً لكي أُصبح داخل الإدارة تماماً، مُحاطة بقطيع ذئاب مُكشِّرة عن أنيابها، لكن الأرنب «أنا» قرَّر أن يتمرَّد، وصرختُ: «سوف أُفتِّش الجميع!».

هُنا صُدموا وكمن سدّد لهم ضربة على أدمغتهم الحقيرة، فوقف عبد الله على طولهِ وضرب مكتبهُ بيده، وعليَّ أن أفهمها «اصمتي»، لكن لا! الساكتُ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس، ولن أرضى أن أكون شيطاناً أخرس من أجل أحد. قال بكلِّ عصبيَّة:

- من تحسبين نفسكِ؟

- أنا وهم.
- هه! هذا مكان محترم، وليس بإمكانكِ أن تُفتِّشي أحداً!
- هه! محترم!

وقفز عكرمة قائلاً:

- هل أصابكِ ضربٌ من الجنون؟ هذا معهدٌ محترم!

هنا ضحكتُ بحرقة، ضحكتُ من الألم، وقلت وقد طفح الكيل وأغرقني:

- مكانٌ محترم، ولكن من فيهِ لا!
- من تحسبين نفسكِ؟
- أنا فتاة قد سُرقَ هاتفها، وأنتم تتعاملون مع هذا الموضوع بكلِّ برودة، وترفضون التفتيش.
- لن يحصل تفتيش، لن تفتِّشي أحداً، ماذا أقول للطلاب؟ أنتم «حرامية» سرقتموها وهي تريد التفتيش. من أنتِ حتَّى تفتشي؟ أنتِ لستِ سوى ابنة خادمة وأنتِ خادمة مثلها!

هنا تراكضت الدموع تتسابق خارجة من عينيَّ، كان كلُّ طلاَّب المعهد خلفي شاهدين على هذهِ الإهانة. وكما قال غابريل غارسيا ماركيز: «لنتعلم الكلام بلا إهانات ولنبذل جهداً كي يحترم أحدنا الآخر، لأننا سنفترق في الآخر»، ولكنَّهم يحسبوا أنَّهم فنَّانون، وكلُّ شيء تحت تصرُّف أفواههم وألفاظهم، وكأنَّنا عبيد عند أمثالهم.

هل لأنَّني ابنة مُستخدَمة يحقُّ لهم سرقتي؟

هل لأنَّني ابنة مستخدمة يحقُّ لهم إهانتي؟

هل لأنَّني ابنة مستخدمة يحقُّ لهم إذلالي بهذه الطريقة؟

هل لأنَّني ابنة مستخدمة؟ ضلع ناقص، بل ضلع مكسور، وهم أكملوا عليهِ تحطيماً، لا يحقُّ لكم! منذ متى؟ هل كان الفقر عيباً، إذاً كلُّ الناس مُعيبين، وكلُّ أفريقيا معيبة، وثلاثة أرباع العالم معيبين، لأنَّنا فقراء نحنُ كحشرات، نحن كالعدم، لا يحقُّ لنا التكلُّم أو المطالبة بحقوقنا لأنَّنا فقراء، نحنُ كعاهرة أُجبرت على أن تكون هكذا بسبب الفقر، ولكنَّها نُبذت لأنَّها عاهرة هذا معيب، ولأنَّها فقيرة في قانونكم فهذا معيب أكثر، كوني عاهرة ومتخفِّية في تقية، المهمُّ لا تكوني فقيرة شريفة، الأولى أنتِ شخص فاضل، والثانية أنتِ شخص مُعيب. لأنَّني فقيرة فقط ولدي حلم أن أُكمل دراستي اضطرت يداي لتقبيل أقدامكم القذرة، كنتُ أتوق لكي أتعلَّم حرفاً، وغيري كان يُنفق عليهِ أهلهُ الآلاف بينما هو أو هي في

«صياعة» يسرح ويمرح ولا يفقه من العلم شيئاً، ولكن شاء القدر للفقير العالم أن يمسِّح أقدام الغني الجاهل.

لأنَّنا فقراء يجب ألاَّ نتمرَّد.

لأنَّنا فقراء يجب أن نصمت.

لأنَّنا فقراء يجب أن نسكت على الظلم.

لأننا فقراء يجب أن نقبل بالقليل، والقليل الأقلَّ منهُ.

لأننا فقراء يجب أن لا نحلم، ونعيش على مبدأ «أمشي الحيط الحيط، وأقول يا رب السترة».

لن أدع فقري الذي ألبسني إياه الربُّ كثوب عفة، سبباً لإذلالي لتمت الدروس والشهادات! كرامتي فوق الجميع! هكذا قرَّرتُ أن أتحدَّى المديرَ والأساتذة وحتَّى الطلاَّب، كلُّ المعهد ضدِّي وحدي، أيُّ عدل هذا؟ مئة من مختلف الأجناس ضدَّ فتاة لم تصل لسن الرُّشد بعد؟ لم آبه فصرختُ بهم:

- سوف أفتِّش شئتم أم أبيتم!

كاد يصرخ بي عبد الله عندما دخل الأستاذ فهد وقال:

- ماذا هناك؟ وهم حبيبتي تعالي، لماذا تبكين؟ ماذا يحدث هنا؟
- لقد سُرقت.
- كيف؟ هل أنتِ جادَّة؟
- نعم، والمدير يقول لي تستَّري وتغاضي عن هذهِ السرقة، ولم يسمح لي بالتفتيش.
- هذا من حَقِّكِ، ففي السرقة الكلُّ متَّهم، ومن حَقِّكِ أن تفتِّشي الجميع بدءاً بنا.
- قل لهُ هذا الكلام.

صرخ عبد الله بي وبالأستاذ فهد قائلاً:

- هذا مكان محترم! اذهبي بقذارتكِ خارجاً!

استغرب الأستاذ فهد فقال:

- لا تعاملها هكذا، فهذا من حَقِّها.
- لا! ليست سوى ابنة مُستخدَمة، كيف سأعاملها؟ ليس من حقِّها أن تتفوَّه بكلمة فدروسها بالمجَّان.

فرددتُ لهُ قائلة:

- لكنِّي أكنس وأنظِّف القذارات وأدرس، لم تعطني شيئاً بدون مقابل لسواد عيني، فإن رددتُ لك مالك –ثمن الدروس– هل سترُدُّ لي كرامتي التي أهنتها هاهنا؟
- وقحة!

صرخ بي عكرمة، وبعدها الجميع، منهم عبد الله ومصعب، كنتُ محاطة بالذئاب فعلاً، كنتُ أرنباً مكشِّراً عن أنيابهِ مقابل قطيع ذئاب، صرختُ بكلِّ قوتي:

- سوف أجلب الأمن ولن يخرج أحد!

قال عبد الله بانزعاج بادٍ عليه وقد احمرَّ وجههُ:

- أنتِ فتاة عديمة التربية ووقحة! اغربي عن وجهي!

طردني من المعهد وكأنَّهُ يجرُّ قذارةً ويرميها خارجاً، صرخ به أصدقائي والأساتذة وأنا ولكنَّهُ ذئب أرعن ليس في عقلهِ عقل ولا في قلبهِ قلب، خرجتُ في الشارع أنوح كفتاة مجنونة، كأرنب نُهش من كرامتهِ حتَّى انتهت، رحتُ أمشي بين السيَّارات ويصرخ بي السائقون: «أنتِ! هل أنتِ عمياء؟ ألا ترين الرصيف؟» آهٍ ماذا أرى؟ أصبحتُ أتمنَّى لو كنت شخصاً أعمى لا يرى كرامتهُ تُمسَّح الأرض بها ويبقى ساكتاً، لا يرى إهانتهِ هو ووالدتهُ بكلِّ برود وصمت، لا يرى أنَّهُ لأنَّهُ أرادَ أن يدرس ويحلم ويحارب الفقر قد ذُلَّ، آهٍ أين هي العدالة في هذهِ الحياة؟ العدالة هي كذبة نيسان الذي صدَّقها الجميع، والأرض خالية من الإنسانية إلاَّ من رحم ربِّي، فتذكَّرتُ قولاً لغادة السمَّان: «أنا من اخترت منذ البداية أن أخسر العالم على أمل أن أربح نفسي!» فقرَّرت أن أحارب، لأنَّني مؤمنة بأنَّ هناك عدالة في السماء من الرَّبِّ وهو سوف يُنصفني فقط، لا أدري كيف وصلتُ إلى البيت وفتحت أمي باب البيت وارتميتُ كمطعون على صدرها وأخذتُ أبكي، ماذا أبكي؟ أأبكي فقيدي؟ أبكي تعبي، أبكي كرامتي مسفوحة الدماء، أبكي الإهانات التي التصقت بي وأبت النزوح مهما غسلتها، أبكي الذلَّ تزوجني بالغصب ويأبى أن أسمَّى مُطلَّقة.

اصفرَّ وجه أمي وإخوتي بدأوا ينتحبون على نحيبي لا يعرفون السبب، دخلت إلى الغرفة وقلتُ والشهقات كسكين يحزُّني مع كلِّ حرف:

- لقد سُرقت.

ردَّت أمِّي وهي تلطم وجهها:

- ماذا سُرق منكِ؟

تردَّدتُ وخفت، ماذا سأقول؟ هاتفي عملُ أربع سنوات، أنا لا أُهوِّل الموضوع، بعض الناس لديهم الهاتف أمر عادي، لكن بالنسبة لنا نحن أفراد الطبقة الرابعة –نعم الرابعة– فإنَّ سرقة أيَّ شيء يعدُّ كسراً للميزانية. الهاتف ليس ثميناً كمادَّة بالنسبة للكثير، ولكنَّهُ ثمين بالنسبة لي ماديَّاً ومعنويَّاً، لقد أخذت أعمل كممرِّضة في عيادة الطبيب أحمد العبيد طبيب العيون، وتحمَّلتُ التعب والدوام الطويل من أجل أن أُعين عائلتي، من أجل المال، من أجل أن أحصل على هاتف، نعم حلم تافه، أن أحصل على هاتف كان حلمي، وتأتي هي وتأخذ منِّي كلَّ شيء، الحلم والذي تحقَّق منهُ، بكلِّ خوف قلت لأمِّي:

- هاتفي.

هنا اتَّسعت عيناها وفاهها، وصفعتني قائلة:

- ولماذا جعلتهم يسرقونكِ؟
- لم أكن...

وأنزلت بي الشتائم واللوم، فصرختُ بالقصَّة كاملة، كانت تجرح حلقي بكلِّ حرف، وانتهيت وقالت لي أمِّي:

- هل بطاقة الذاكرة «SD card» في الجهاز؟
- نعم.
- وفيه صوركِ وصور العائلة؟
- نعم.
- ورقم «الواتس»؟
- نعم.

لطمت وجهها قائلة:

- يا فضيحتنا! إذا وقع في يد شابٍّ قذر، انتهى أمرنا!
- لا تقولي هذا أرجوكِ.
- كان يجب أن تكوني منتبهة أكثر فهذا جهاز شخصيٌّ، وليس لعبة!
- لا تخافي لهُ قفل، وإذا أراد أي شخص فتحهُ، يحتاج إلى رمز القفل.
- آه الله يستر بس، ولا تخبروا والدكم بهذا الموضوع، يكفينا حالنا هذا.

- حسناً.

وأغلقتُ عليَّ باب الغرفة، أخذتُ أتكوَّر كعادتي على الأرض وأخذت الدموع والأفكار والذكريات تتسرَّب إليَّ، وعقدت العزم على معرفة من هو السارق، هل هي خلود أم ظلمتها؟ أم هو شخص آخر؟ أمسكت قلماً وورقة ورحتُ أسجِّل أسماء الأشخاص المقرَّبين منِّي ومن يعرف رمز قفل هاتفي، ساندي هاتفها أفضل من هاتفي، ولا تعرف القفل، نهلة على نفس السبب، ونسرين أيضاً، بقيتُ أكتب وأشطب، وتوصَّلتُ إلى من يعرف الرمز، إنَّها خلود فقط، تذكَّرتُ أنَّني فتحتهُ أمامها أكثر من مرَّة دون أن أنتبه، ومرَّة كانت تمسكه، وتحاول أن تفتحهُ بحجَّة أنَّها تريد أن ترى الصور، وبكلِّ بساطة وسذاجة فتحتهُ أمامها، خلود فتاة غنية، لا ينقصها شيء، ولديها بدل هاتف ثلاثة لقد رأيتها بأمِّ عيني، لكن والديها كانا يراقبان كلَّ تصرفاتها، ولا يريدانها أن تنشغل عن دراستها، أهلها سُذَّج كانت لا تحضر الدروس أصلاً، وكانت تقضيها تتسلَّى في ساحة المعهد مع الفتيات وتصنع صداقات مصلحة فقط، كان حجمها ضعف حجمي بسبع مرَّات، كانت غنية بجيبها وجسدها، كانت بدينة كما تقول «من العز» وكانت تتَّبع حمية مكوَّنة من البسكويت والكولا لتنقص من وزنها! وكانت تقول إنَّها نباتيَّة، وتقرف شيئاً اسمهُ اللحم، سبحان الله! كما قال أدهم الشرقاوي:«في هذا العالم أشخاص يهربون من الرغيف خوفاً من السمنة، وأشخاص يركضون وراءهُ من الجوع» أُناس تمقت الطعام، بينما أُناس أقصى أحلامها قطعة خبز، ولكن ما فائدة العزِّ الذي تتحدَّث عنهُ؟ العز الذي يُطيل اليدين؟

أخذتُ هاتف أختي وفتحتُ شبكة الـ«wifi» لأرى رقمي، وإذ آخر ظهور له منذ قليل، هنا طار كلُّ العقل الذي كان متبقياً لدي، إذاً فالسارق يعرف رمز القفل، وشغَّل الشبكة عليه أيضاً. يا لها من مصيبة! الآن أصبحتْ كلُّ خصوصياتي وخواطري ورسائل الحبِّ التي كتبتها لمهنَّد على أمل أن أرسلها لهُ في يوم في يد السارق، لم يسرق فقط الهاتف بل قلبي والحبَّ وخصوصياتي وصوري وكلَّ ما كان يخالجني، سُرق عقلي وحروفي، لا بدَّ أنَّها خائفة لأنَّها بعيدة عني، أنتِ اشتقتني وأنا أقسم أنَّني أخاف عليكِ من أن يغتصبكِ أحد بقراءتكِ. يا الله! ما الحل؟

طردتُ نعم، ولكنَّ أمِّي بقيت تذهب في الصباح الباكر تنظِّف، أحياناً أذهب معها وأكتب كلَّ ما آراهُ على السبورة في كلِّ الصفوف، وأخرج قبل أن يصل أحد، وأحياناً أخرى ينتهي دوام المعهد عند الغروب أو قبله بقليل، فتذهب أمِّي لتنظِّف بدلاً من الصباح الباكر،

فكنتُ أذهب معها، أكتب أيضاً كلَّ شيء وأنظِّف معها وأعود، بقينا أسبوعاً على هذهِ الحال، وأنا أخفي الموضوع عن أبي تحسُّباً لأي طارئ «اللي فيه يكفيه»، فعندما كان يذهب للعمل كنت أدرس وعندما يعود ويراني اضطرُّ أن أكذب كذباتٍ بيضاء، أو سوداء، لا يهمّ، فكنتُ أخبره أنَّنا انتهينا باكراً جداً.

استيقظت في الساعة السادسة صباحاً، وكنتُ قد رسمتُ خطَّة لأنتقم من خلود، لأنَّها بعد استنتاجاتي كانت هي الفاعلة، وأنا متأكِّدة، لأنَّ الكلَّ قد هاتفني وواساني، ولكنَّها صديقتي ولم تفعل، فهاتفتها أنا بدافع الانتقام، وأجابت أختها وقد حاولت أن تكذب عليَّ وتلعب لعبة أنَّها الأمّ، خلود كانت بجانبها، نعم سمعتُ صوتها تلقِّنها ماذا تقول، هنا لم أعد احتمل، من يحسبونني؟ هل أنا مُجرَّد قارعة طريق مهما حدث لها لا أحد يأبه بها، إن تلوثَّت، أو أقتصَّ منها المطر، أو تعرضَّت لحادث بسبب الطقس، أو أخذ يُقبِّلها الصدئ تاركاً آثارهُ البنية؟ أغلقتْ سمَّاعة الهاتف في وجهي، وقبل أن تغلق قالت:

- نحنُ لسنا سارقين، ومِن مَن؟ مِن ابنة مُستخدَمة مثلكِ؟

وأخذت تضحك، حسناً ابنة مستخدمة ولي الشرف، فقيرة تعمل بكلِّ نزاهة لتحصل على ما تريد، وليست غنية باعت شرفها من أجل المال وأطالت يدها، كما يقول المثل: «اللي يسرق بيضة بيسرق جمل» هناك احتمال أن تكون سرقة هاتفي مجرَّد سرقة واحدة من رصيد سرقاتها، هنا أجريتُ اتصلاتي وجلبتُ عنوانها، كان حول منطقة الفردوس بجانب فرن عبد الرحمن حسبما أذكره، اتصلت في الصباح مرَّة أخرى وهدَّدتها بأنَّني سأكون بعد ساعة في منزلها، مع عنصر أمن وأمِّي، وأن تجهِّز نفسها لفضيحة علنيَّة، سوف تُمرَّغ سمعتها بالوحل، مثلما أطعمنتي هي إيَّاها بالإهانات مِن قِبل الإدارة، ركبنا سيَّارة أجرة وذهبنا إلى المعهد وقد تأنَّقتُ بملابس بسيطة، حان وقت الانتصار.

من أين لي هذهِ الثقة الزائدة؟ هي من إيماني بعدالة الرَّبِّ، نزلنا عند باب المعهد، دخلتُ وبدأ الطلاب يتوجَّهون إليَّ ويسلِّمونَ عليَّ ويقبِّلونني وكأنَّني كنتُ في الحج، وقالت لي نسرين:

- وهم كلُّنا معك، لا تسكتي على هذهِ السرقة.

وقبل هذهِ المواجهة بيوم كنتُ قد هاتفتُ نسرين وبعض الصديقات قائلة لهن:

- نسرين أذيعي خبر أنَّني عرفتُ السارق، وسوف أواجههُ في أقرب فرصة.

وعادت نسرين تهاتفني وتخبرني بكلِّ تحرُّكات خلود، وقالت لي:

- أقسم أنَّها أصبحت متوتِّرة دائماً وتسأل: «من السارق يا ترى؟»، أصبحت تحتَّك بنا بعدما عرفت أنَّكِ سوف تواجهين السارق لإبعاد الشبهات عنها.

دخلتُ الإدارة بعد ضرب الباب، وكان فيها المدير خريج الشريعة عبد الله، وعكرمة وأسامة، والأستاذ عهد المصطفى أستاذ اللغة الإنكليزية، الذي لطالما كان كالأخ الكبير بالنسبة لي ودائماً كان يدعمني ويفتخر بي أمام الطلاب، والأستاذ أسامة كنتُ قد كلَّمتهُ مرَّة بعدما قلتُ لنسرين أن تخبره باستنتاجاتي، لأنَّني كنتُ أثق بأنَّهُ شخص طيِّب، فقال لي:

- وهم أنا سوف أخبركِ بسرٍّ، قبل أن تتعرَّضي أنتِ للسرقة، قامت خلود بسرقة فتاة أخرى وأنا شاهد، ولكنَّ عبد الله لم يدعنا نكشف الموضوع خوفاً على سمعة المعهد. وقال إنَّهُ سوف يقف في صفي وقت المواجهة.

قطيع الذئاب ضدي.

عندما دخلتُ اصفرَّت وجوه عبد الله وعكرمة، أسامة أيضاً أحسستُه يتصبب عرقاً، وقال الأستاذ عهد:

- «وين هل غيبة آنسة؟»

فتقدَّمتُ وألقيتُ التحية عليهِ، وقلت:

- ألم يخبرك أحدٌ بأنَّني تعرَّضت للسرقة على يد فتاة هنا؟ وأنَّ الأستاذ عبد الله وجماعتهُ تستَّروا على الموضوع خوفاً على سمعة المعهد؟

هنا فتح الأستاذ عهد فمهُ، وجحظت عيناه قائلاً:

- ماذا تقولين؟

ونظر إلى عبد الله وقال:

- هل هذا صحيح؟

قال عبد الله بكلِّ ثقة:

- تعرَّضت للسرقة.

قال لهُ الأستاذ عهد:

- ولِمَ لَمْ تساعدها؟
- وما ذنبي أنَّها سُرقت؟

هنا انصدم الأستاذ عهد لكلامهِ قائلاً:

- فعلاً «الي استحوا ماتوا».

وخرج وهو منزعج محمرُّ الوجه، ودخلت أمِّي وعنصر الأمن، وهنا قلتُ لعبد الله:

- وفيتُ بوعدي وسوف أخبرك من الفاعل، ولكن عليَّ إحضار خلود.
- خلود هنا، وقد هاتفني والدها وسوف يحضر بعد قليل، ولا يحقُّ لكِ أن تتَّهمي أيَّ أحد.
- لم أتَّهم أنا متيقِّنة.

قال عنصر الأمن:

- من؟
- استهدي بالله، ماذا تقول؟
- أنتَ كما قالت وهم: خرِّيج شريعة أي شريعة هي التي لا تتَّصف بها فتاة مسروقة.

صمت عبد الله ولم يتفوَّه بكلمة، قلت أنا:

- سوف أذهب وأجلب خلود.

وقالت أمِّي:

- يا أستاذ عبد الله لم أتوقَّع منك؟

أُغلق فمُ الأستاذِ عبد الله، وعكرمة لم يتفوَّه بحرف وكأنَّهُ غير موجود، وأسامة كالتمثال كأنَّهُ قطعة أثاث فقط، طرقتُ باب الصَّفِّ وفتح لي الأستاذ فهد المخلف قائلاً:

- «وين چنتي –أي كنَّتي– وين هل غيبة؟»
- «أهلين أستاذ، قصَّة طويلة وتعرفها»
- هل هي قصة الهاتف؟
- نعم؟
- ماذا سوف تفعلين؟
- «ولو؟ الكثير!»
- «حيُّو!» أعرفكِ، لم أخترك زوجة ليعقوب لولا أنَّكِ بطلة.
- ها ها شكراً، أريد خلود؟
- لماذا؟
- قريباً ستعرفون، مفاجأة!

وغمزني قائلاً:

- «أي تكرمي»، اذهبي معها يا خلود؟

فأجابت بخوف:

- لكن لديَّ درس!

قال الأستاذ:

- أقول لكِ اذهبي مع وهم، هيَّا!

بتردِّد وهي ترتجف قالت:

- حَـ... حَـ... حسناً.

فقلت للأستاذ فهد:

- مشكور.

- «ولو؟ بدنا خدمة تحرز!»

فضحكنا، كان يناديني بـ«چنة» أي كنَّة لأنَّهُ قال لي مرَّة: «ستكونين أنتِ زوجة ولدي يعقوب الذي بقي على ولادتهِ أربعة أشهر» فضحكنا، ومنذُ ذلك الوقت ولا يناديني إلاَّ بـ«چنتي»، رحمهُ الله لقد توفِّي في ضربة للطيران هو وزوجتهُ وخطيبي المنتظر يعقوب، دائماً يذهب كلُّ الأشخاص الذين أُحبُّهم.

خرجنا مع خلود، وغمزتها قائلة:

- يا بطَّة اتصلتي بأهلك؟ حسناً ليس لديَّ مانع.

- وهم أنا لم أسرق شيئاً، أُقسم...

- «قالوا للحرامي أحلف قال جاني الفرج» هيَّا!

- أنا لن أدخل إلاَّ مع والديَّ.

- احتمي بمن تريدين، لا تحسبي وجود أمِّي وعنصر الأمن من أجل المواجهة، هما شاهدان عليها فقط، أنا وحدي من سوف يواجهكِ، اجلبي من تريدين. لم هناك يعد مكان لطعنة خوف داخلي.

كنتُ قد ضمَّدتُ مشاعري وقلبي وكلَّ ما تبقَّى من كرامة وجوارح بضمَّادات ضدَّ السمع لكي لا تُجرح أكثر، وعزمتُ حمل كلَّ جراحي لإعادة ملئها بالكرامة المسفوحة دماً. لأنَّ كرامتي فوق الجميع، بقيتُ واقفة أمام باب المعهد، أراقب تحرُّكاتها تحسُّباً لأيَّة عملية

انسحاب أو هرب تقوم بها، وصل والدها بعد ربع ساعة تقريباً، نزل هو ووالدتها البدينة من سيَّارة «جيب» سوداء صارخة الثراء، وكانت والدتها تحمل حقيبة سوداء أقسم بأنَّها كانت أغلى من ثمن هاتفي وملابسي معاً، كان والدها خمسينيَّاً أسمر ذا شاربين عريضين وكرش كبيرة بارزة، وكان يرتدي ساعة صفراء أظنُّها من الذهب، كانت جميلة جداً، وخاتمهُ الذي يُطوِّق بنصره أثقل منِّي أيضاً، كنت أمامهما كفيلين ونملة، طبعاً أنا هي النملة، ولكن النملة التي سوف تدخل وتلدغ غرور الفيل.

دخلتُ إلى الإدارة ودخلوا هم ورائي، جلستُ في المنتصف بين أمِّي وعنصر الأمن، كان عنصر الأمن رجلاً أربعينياً ذا شعر غلب عليه البياض، وقف عبد الله وحيَّا أهل خلود بكلِّ حرارة وكاد أن يُقبِّل أيديهما ، عندما دخلنا نحنُ اصفرَّ وازرقَّ وجههُ، هذا أمر طبيعي، الغني نمسِّح على يدهِ كالكلاب، والفقير نلويها ونحاول كسرها، لم آبه بما فعل جلسوا وقال والدها:

- السلام عليكم، كيف الحال؟

ردت أمِّي:

- من الله بخير.
- إن شاء الله تكون الأشياء كلُّها بخير.

فقالت والدة خلود:

- من أين يأتي الخير؟ وأمثالهم يتَّهموننا –نحنُ أولاد الأكابر والجاهات– بالسرقة!

ضحكتُ واعتبروها وقاحة، فردَّت أمِّي قائلة:

- أولاد الأكابر نعم، والجاهات على عيني ورأسي، ولكن السارق تُقطع يدهُ.

صمت الجميع، وبدأ عنصر الأمن العمُّ حسام يحكي القصَّة للجميع بطابع أمن وتحقيق، وأخذ يطرح الأسئلة ويختارنا لنجيب. أحسَّت خلود وعائلتها بأنَّهم محاصرون في الزاوية، فقال عبد الله الذي يحاول منع سكب ما تبقَّى من ماء وجههِ:

- البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر.

تكلمتُ أنا قائلة:

- وهذا ما أريدهُ: عدالة باسم الرَّبِّ، أنا قُلتُ لكم القصَّةَ وأعادها لكم العمُّ حسام مع الأدلَّة والاستنتاجات التي وصلتُ إليها، ويبقى على خلود التي تُنكر الموضوع أن تُقسم على كتاب الله، على القرآن الكريم، بأنَّها ليست السارقة.

قفزت أمُّ خلود تصرخ بكل ما أوتيت حبالها الصوتية من قوَّة قائلة:

- نحنُ لسنا سارقين من فتاة مثلكِ، فخزنة البيت مليئة بالمال، ولا نحتاج أحداً!

ضحكتُ أمِّي وقالت:

- ما فائدة الخزنة وابنتكم سارقة؟
- ابنتي لم تسرق!
- إذاً دعيها تقسم!

ردَّت خلود:

- لن أقسم على شيء، أنا لستُ السارقة، ولن أسمح لكِ بأن تتَّهميني، وسأقطع لسانكِ!

قلتُ أنا:

- قبل أن يُقطع لساني، يدكِ ستكون مقطوعة!

قالت أمُّ خلود:

- من أجل شيء سخيف تتَّهمينا بالسرقة؟ لسنا محاجين مثلكم!
- مثلنا؟
- نعم! فأنتِ ابنة مُستخدَمة ومن في مثل أشكالكم الرثَّة بحاجة لأمثالنا! فلكي تعوِّضي سرقةَ هاتفكِ الذي لا تملكين نصف أو ربع ثمنهُ حتَّى، فكَّرتِ: إنَّ خلود غنية وسوف تدفع.

هنا لا أدري ماذا كُسر في داخلي، تمزَّقت كلُّ الضمادات، وهربت دمعة خارج عيني، وصوت الحطام أصمَّ أُذنيَّ، فقالت أمِّي بكلِّ حرقة:

- أفتخر بعملي على الأقل، أنا أعمل لأُعيل نفسي ولا أعتمد على أمثالكم. أنتم الأغنياء الذين تكون أيديهم طويلة، وعيونهم أيضاً، ودائماً لا يشكرون الرَّبَّ ويريدون المزيد.

قال العمُّ حسام:

- خلود يجب أن تُقسم.

ردَّت خلود بخوف:

- لن... لن أُقسم.

قالت أمِّي:

- لأنَّكِ الفاعلة! أنا أُقسم عن ابنتي، لأنَّني واثقة بصدقها. وأنتِ يا أمَّ خلود، هل تُقسمين عن ابنتكِ؟

هنا اصفرَّ وجه أمِّ خلود، وقالت:

- لا أُقسم عن أحد.
- إذاً لا تثقين بابنتكِ، لأنَّها الفاعلة، الخزنة مليئة كما تقولين، نعم، ولكنَّ ثقتكم ببعضكم فارغة.

هنا تدخَّل والد خلود قائلا:

- أعتذر عن زوجتي وابنتي، سوف أقوم بدفع ثمن الهاتف وتنتهي القصَّة، المالُ يحلُّ كلَّ شيء.

رددتُ عليه بغضب:

- المالُ لا يحلُّ شيئاً! هذا فقط في تخلُّفكم! لا أريد المال ولا الهاتف! لم أعد أريد شيئاً!

فقال الجميع:

- ماذا؟

وقالت أمِّي:

- وهم!

فقلتُ:

- أريد شيئاً واحداً فقط.

صرخ والد خلود بزوجتهِ وابنتهِ اللتان أرداتا الحديث:

- اصمتا! اخرجي يا خلود! لقد سوَّدتِ لي وجهي! وأنتِ اصمتي أو اخرجي مع ابنتكِ! وأنتِ يا وهم، تكلَّمي يا ابنتي، ماذا تريدين؟
- لستُ ابنتك، أنا ابنة أبي وأمِّي فقط. شرطي هو أن تُقسم خلود على المُصحف بأنَّها ليست الفاعلة، وبعدها سأغلق فمي وأخرج ولن أُطالب بالثمن أبداً.

صرخ مدير المعهد قائلاً:

- وهم وخلود أنتما مفصولتان!

فقلتُ أنا:

- في الأصل لن أحضر، لا يشرِّفني أن آتي وأنظِّف قذارات أمثالكم.

- ماذا تقصدين؟
- فهمُكَ كفاية.

قال العمُّ حسّان:

- هيَّا خلود إمَّا ان تحلفي أو نذهب إلى الفرع، وهناك ستدخلين السجن، فتاة وسجن وسرقة، ثلاثة في واحد! يا لها من سمعة ستلحق بكِ أنتِ وعائلتكِ! وبالنسبة لعبد الله سوف تُحاسب على التستُّر على السرقة.

قال بخوف:

- أنا؟

قال العمُّ حسام:

- نعم، لقد درستَ شريعة الإسلام لكنَّها بريئة من أمثالك.

هُنا قلبت الآية، وأتت العدالة الربانية التي لطالما أنصفتني، بدأت خلود وأمُّها وأبوها يتوسَّلونني لأقبل ثمن الهاتف، وأحلَّ المشكلة، وأنا وأمِّي نرفض، لقد أراد رشوتي فقال:

- سوف أدفع الضعفين، ولكن تنازلي عن شرطكِ. خلود فتاة مراهقة وطائشة، هل من المنصف أن تسلبي سمعتها؟

هنا ضحكتُ حتَّى «تفزَّرت خاصرتي» قلتُ لهُ:

- طائشة أو مراهقة ليس ذنبي، يا عمّ اسمح لي، لكنَّك لم تعرف كيف تربِّي.

قال:

- عفواً؟
- نعم! لو علَّمتها أن السرقة حرام، لما فعلتها.

واستمر عنادي لساعات، وتوسُّلات الكلِّ تُحيط بي، أصبحتْ الذئاب تطلب رضى الأرنب. وجاء بعض الأساتذة منهم فهد المخلف –رحمهُ الله– والأستاذ عهد المصطفى، ولاحترامي لهم ولشخوصهم رضيتُ أن آخذ ثمن هاتفي فقط قائلة:

- «خلِّي الرشوة للمرتشي، أنا فقيرة بس عيني مو زايغة».

وأخذتُ ثمن هاتفي، وخرجتُ مُنتصرةً ومنبوذة من قِبَلِ عبد الله. وعندما خرجنا أخذ يتأسَّف مع أهل خلود –مع المذنبين– وتركنا نحنُ الضحايا، هكذا هم أصحاب المصالح.

وبعد فترة أسبوعين من تركي للمعهد، قام المدير بإذلال طالب فقير لأنَّهُ قال له إنَّهُ لا يملك ثمن الأقساط كاملة، وطلب منهُ أن يمهلهُ يوماً، ولكنَّهُ أهانهُ أيَّما إهانة، ولكن هذا الطالب لم يصمت، بل قرَّر مثلي أن ينتقم، فعاد في منتصف الليل بعدما تأكَّد أن الحارة خالية من السكَّان، وقام بحرق الإدارة والمعهد كاملاً، فتعرَّض عبد الله لخسارة كبيرة، وبعد أشهر ذهبنا لزيارة لبيت صديقة أختي –وكان اسمها هزار– وأتت سيرة الجيران فقالت: إنَّ جارهم هو عبد الله صاحب المعهد، وهو مصاب بمرض الكلية. وقالت: «يالهُ من مسكين! لقد تكالبت عليه المصائب»، أعتلت ابتسامة حزن وشفقة شفتيَّ، لم تتكالب عليهِ المصائب أبداً، هذهِ هي العدالة الربَّانيَّة فقط.

وبعدها قرر والدي ألاَّ نعمل في أيِّ مكان، فأخذتُ أدرس لوحدي في المنزل، وفي يوم اتَّصل بي الأستاذ عهد المصطفى، وقال إنَّهُ سوف يقوم بإعطائي الدروس والاختبارات في بيت طالب من الطلاَّب الذين يُدرِّسهم. لم أقبل في بادئ الأمر، لن أقبل بالشفقة مهما كان وضعي الماديُّ والمعنويُّ، أمَّا العاطفي فحدِّث ولا حرج. فقال لي الأستاذ عهد: «أنا كأخ أو أب أو صديق، وعليكِ أن تسمعي الكلام، لن أدع طالبة مثابرة وعاشقة للُّغة مثلكِ تضيع هباءً». فأعطاني العنوان، وأخذتُ أحضر الدروس، كنتُ أدرس بجد لأُظهر للجميع من هي أنا، وأنَّني لستُ بحاجة لكم، وقام أساتذة آخرون بالاتِّصال بي وعرض الدروس والضغط عليَّ لأقبل. لم يتركوني وحدي أبداً، وصارت سمعة المعهد مُحبطة وأُغلق.

إلى الآن كنتُ أظنُّ أن المعاناة كانت قد انتهت، لكنَّها كانت البداية، أصبحتُ أحسُّ بألم يجتاح صدري وقلبي كلَّ يوم، السَّببُ «هو»، السَّببُ «هو»، السَّببُ «هو»، تثاقلت الأشياء في قلبي، الوضع الدراسيُّ والماديُّ والعاطفيُّ قد أطاحوا بي.

يا الله! هل ينقصني أن أقع في الحبِّ؟

أين هو عندما أخذت تتكالب عليَّ الذئاب؟

أين هو عندما أُريقت دماء كرامتي؟

أين هو عندما عُيِّرتُ بالفقر؟

أنا لستُ فقيرة، أقسمُ أنَّ قلبي مليءٌ بالحبِّ!

بعدها بأيام حصلتُ على هاتف جديد لي، وبقيت ذكرياتي مخطوفة في هاتفي القديم.

كان الحب جميلاً



«لا بدَّ لهذا القلب أن ينسحب...»

أحلام مستغانمي

«كُلما خُذِلت المرأة باتت قوية وقاسية وسريعة النسيان، تماماً كالرجال»، صدَّقت الآن «كيكي» بهذا القول، فقد تكالبت عليَّ الخيبات واجتاحتني عواصف الخذلان، فقرَّرتُ أن أنسى وأصبح قوِيَّة، ولكنَّ حبِّي لهُ كان أكبر حماقة ارتكبها قلبي.

دعتني سمر لحضور درس للُّغة العربيَّة في منزلها، دخلت لكنَّهُ كان يدرس بمحافظة أخرى، فلم يكن بالمنزل أبداً، وجلسنا مع الأستاذ والطلاَّب، كنتُ مبدعة أحبُّ الكتابة، خصوصاً الموضوعات الإنسانيَّة والتعبيرية. كنتُ دائماً أغلب فيها الجميع، لم أكن أُحبِّذ القراءة، لكنَّني ذات مخيِّلة خصبة، لدرجة أنَّني أستطيع فيها أن أبني حضارة بأكملها. كنتُ أغضبُ عندما يقرأ أحد ما أكتب ويشبِّهني بـ«أحلام» أو «درويش»، أو حتَّى «نزار»، فكنتُ أصرخ بغضب:

- أنا اسمي وهم، ولست بأحلام، ولا أشبه أحداً!

كنتُ أكره عندما يشبِّهني أحد بأيِّ شخص مهما كان، ولو حتَّى بالشكل، انتهى الدرس وذهب الأستاذ، وبقيتُ أنا وسمر وبعض الفتيات جالسات، نتحدث عن الهواتف، والإنترنت، فقلتُ:

- أنا استخدم تطبيق «whatsapp» للتواصل مع عمِّي في الخارج.

قالت سمر مندهشة:

- حقاً؟ مهنَّد لديهِ «whatsapp» أيضاً، لكنَّنا لا نستطيع التواصل معهُ.
- لماذا؟
- -لأنَّنا لا نملك هاتفاً يعمل عليه التطبيق.
- امم...
- ما رأيكِ أن تأخذي رقمهُ وتحدِّثيه وتطمئنيهِ عنَّا وتكلمينا عن أخبارهِ، ما رأيكِ؟

عندما قالت سمر هذا أحسستُ بتوتُّر وسعادة بالغين، عقلي صامت وقلبي يُحلِّق وروحي ترقص فرحاً، ولا تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول. ولا شعورياً كنتُ قد قلتُ لسمر: «أعطني الرقم»، أخذتهُ وخرجتُ طائرة مُحلِّقة، وكأنَّه اعترف لي بالحب، وكأنني رأيتهُ وتفرَّستُ وجههُ، كأنني عانَقتهُ، كأنني امتلكتهُ.

لكنِّي للأسف لم أمتلك إلاَّ رقمهُ، دخلتُ المنزل بسرعة واتَّصلتُ بالشابكة وأرسلتُ:

- مرحباً، أنا وهم، كيف حالك؟

انتظرتُ، وانتظرت، وانتظرت، ولم يجب أبداً. فشعرتُ باليأس وأغلقتُ الشابكة، وذهبت لكي أدرس، فبعدما تركتُ المعهد أصبحتُ أُكثر من المذاكرة والدراسة لأُري الجميع بأنَّني لستُ بحاجة إليهم ولا لشفقتهم، ولا لأموالهم القذرة، لستُ بحاجة في الحقيقة إلاَّ إلى مهنَّد. أخذتُ أدرس بحزن بالغ لأنَّه لم يجب، لكنَّني لم أفقد الأمل، وكيف أفقدهُ؟ وأنا التي انتظرتهُ لستِّ سنوات، فكيف لا أستطيع أن أنتظر ستَّ دقائق أو ستَّة أيام أو ستَّة أشهر أو فقط ستَّ ساعات؟

انتهيت من دراستي سريعاً، وبدأتُ بالنظر إلى هاتفي، وأنا أقول في نفسي: «هل سيكون قد أجاب؟ هل سيعرفني؟ هل سيشعر بي؟»، بقيت «هل» سيِّدة الموقف، بل أصبحتُ أكره حرف الهاء والظنَّ والتسويف، بل أصبحتُ كارهة للُّغة العربية التي لطالما خانتني عندما احتجتُ إليها، بقواعدها الصارمة وفعلها ومضارعها وفاعلها وأمرها، والمذكَّر والمؤنث. أريدُ أن أضعها جميعاً في صندوق أسود محكم –كما تعهَّدتُ أن أفعل بحبِّهِ من قبل سنوات– وأرميه في البحر في المحيط، أريدهُ أن يغرق هو ولغتهُ وحبَّهُ وكلّهُ. لكنِّي لم أكتشف أنَّ قلبي قد عَلِقَ خطأً وغرق معهُ مُتمسكًّاً بقلبهِ واستقرَّ في القاع منذ سنين، واليوم أشفق عليه البحر وقذفهُ إلى الشاطئ، إلى اليابسة القاسية، فالبحر يقذفُ ما ليس لهُ. آهٍ لو تلاشى في رطوبة البحر ونُسي! لكان أفضل لنا.

فتحتُ هاتفي واتَّصلتُ بالشابكة، ووجدتُ رسائل مُرسلة منهُ، خفت، فرحت، ارتبكت وتلعثمت، مِتُّ من فرط السعادة، لم أعد أعرف ما هو الشعور والكلمة المناسبة لهذا الإحساس، النشوة! نعم لا بدَّ أنَّه كذلك، شعور وإحساس لا يُوصفان. فتحتُ الرسائل ووجدتُ ثلاث رسائل قصيرة بهذا الترتيب، تمَّ إرسالها تماماً في الساعة السادسة والنصف، لماذا رقم ستَّة يلاحقني يا الله؟

مرحباً وهم.

كيف حالكِ؟

أنتي صديقة سمر أليس كذلك؟

رددتُ عليه:

- –نعم أنا وهم صديقة سمر.
- جميل، وكيف حال سمر؟

- إنها بخير، وتريدُ الاطمئنان عليك، وعائلتك كلُّها أيضاً تبعث لك بالسلام.
- أوه! شكراً لكِ، أخبريهم أنَّني بخير وأنِّي اشتقتُ إليهم كثيراً.

صمتُّ وتوقَّفتُ عن الكتابة عند كلمة «اشتقتُ»، لطالما أردتُ أن أخبرهُ ب هذهِ الكلمة. ماذا سأفعل يا ترى؟ هل سأقول لهُ: «لقد نسيت أن أقول لك، وأنا اشتقتُ لكَ أيضاً! كثيراً جداً وليس كثيراً وحسب، أيضاً اشتقتُ لوجهك الذي عشقتهُ وأنا لم أرهُ ولم أعرفهُ، اشتقتُ لصوتك الرجوليِّ الخشن الممتلئ بالقسوة والكذب، اشتقتُ لشعرك الأشقر الداكن الطويل، اشتقتُ لطولك، اشتقتُ لاسمكَ الذي شقَّ قلبي واستقرَّ كالسيف».

صمتُّ وأنا أفكِّر، ماذا أقول؟

كنتُ أتمنَّى أن أخبرهُ بكلِّ هذهِ الكلمات دفعة واحدة، لكنني لم ولن أفعل، لماذ؟ لأنَّني شرقيَّة مغرورة جامحة بكبريائها، حفيدة الرشيد لا تَضعُف أبداً أمام «الحبّ»، لكنَّ الحبَّ أجهز عليّ، لم يُبقِ منِّي سوى أنثى بقساوة حلوة المذاق.

قلتُ لهُ:

- نعم، وعائلتك كذلك.

لم أستطع أن أكتب كلمة «اشتقتُ» أو «أشتاقت» فأكتفيتُ بـ«وعائلتك كذلك».

قال لي:

- أنتِ صديقة سمر؟
- نعم.
- هل أعرفكِ؟

ماذا أُجيب؟ فهو لا يعرفني، ولم يرني إلاَّ مرَّة خاطفة.

- لا لا أظن.
- لماذا لا تظنين؟
- لا أدري، لكن أعرف بأنَّك لا تعرفني أبداً.
- حقاً؟
- نعم.

غيَّرتُ أسلوب الحديث معهُ حتَّى لا يشكَّ أو لا تظهرَ مشاعرُ الحبِّ والشوق من خلال خروفي، لكني كنتُ مشدودة إلى الحديث معه كثيراً.

بدأ يريد التعرف إليَّ: من أنا؟ ومن أين؟ بالأحرى شعرت وكأنَّني مجرمة في فرع مخابرات يُحقَّق في أمري، لكنِّني أتمنَّى أن أكون مجرمة إذا كان هو المُحقِّق والسَّجَّان وحتَّى القاضي، وسأكون أسعد شخص في الدنيا إذا كان الحكم المؤبَّد في قلبه، لكنَّهُ نفاني، لكن هو لا يعرفني، بل لا يتذكَّر وجهي أبداً، لمحني فقط منذ ستِّ سنوات، فكيف لهُ أن يتذكَّر وجهاً لمحهُ منذُ ستِّ سنوات؟ كيف لهُ أن يتذكَّر؟ لكنَّني عشقتهُ من لمحة!

بدأنا بالحديث، وكأننا في تحقيق، بدأ يقول لي:

- من أي محافظة أنتِ؟
- من الرَّقَّة، من أين تظنُّني؟ من المريخ؟ نحن أولاد محافظة واحدة!
- أهلاً وسهلاً. ماذا يعمل والدكِ؟
- لماذا تسأل؟
- هكذا، أحبُّ أن أعرف كلَّ شيء عن الأشخاص الَّذين أتحدث معهم.
- آها! هكذا إذن!

وأخبرتهُ، وبقي يستجوبني لساعات، وأنا كالغبية أخذتُ أخبرهُ كلَّ شيء بكلِّ لهفة وعفوية بتفاصيل مُملَّة. اشتقتُ –بل كنتُ أنتظر– لحظةً كهذهِ، ولا أريدها أن تنتهي أبداً.

استمرَّينا على هذهِ الحال لشهرين، ومن خلال محادثتي الغبية دون أن أقصد بدأ يسألني ويحاورني عن الحبِّ، سذاجتي دائماً كانت سبب حزني، أكتشفَ من خلال أسلوبهُ الخاص –الذي يشبه المحقق «كونان»– أن يعرف كلَّ شيء، وأنا كالبلهاء لم أنتبه بأنَّني أخبرهُ بقصَّة حبِّي لهُ، وبدأتُ أصفُ الشابَّ الذي أحبُّهُ:

- طويل ذو شعر أشقر طويل، ذو قَصَّةٍ محترمة جميلة، ذو عينين زرقاوين.
- هل هذا هو حقاً؟ أليست عيناه عسليَّتين؟ ألا يصبح أفضل؟ أظن ذلك.
- ماذا تقصد؟

صدمتُ هنا من طريقة حديثهُ، وبدأ الفأر يلعب في المكان، فقال:

- أقصد أنَّني عرفتُ كلَّ شيء.
- ماذا تقصد؟

حتَّى لآن لم أكن أعرف أنَّهُ استدرجني في الحديث وعرف كلَّ شيء، آهٍ كم هو حقير مخادع! لا هذهِ الكلمة لا تكفي لأصف شخصاً مثلهُ أبداً.

- نعم، عَرفتُ كلَّ شيء عنكِ.
- ماذا عرفت؟
- عرفتُ من هو حبيبكِ!
- آه حقاً؟ لا أعتقد أنَّك عرفت، ولن تستطيع أن تعرف أين هو.
- بلى أستطيع.

كنت كمن سُكب دلو ماء بارد على رأسه، فهمتُ أنَّه قد استدرجني بالحديث، وعرف أنَّهُ من «أُحبُّ وأعشق»، آهٍ كيف لشرقية الاعتراف؟ أليست غبية؟ لا بل هي عاشقة، مجنونة، حمقاء، متهوِّرة. لم أهتمَّ لما سيُقال عنِّي، لكنَّهُ قد عرف وأنا سعيدة أم تعيسة لا آبه، أعرف أنَّ الحبَّ ليس فقط اعترافاً، بل هو اهتمام واحترام وتنازلات وعطاء وتضحية ووفاء وإخلاص.

- نعم، لقد عرفتُ. كنتُ سأقول لكِ إنَّه «أنا» من تحبين لكن...
- لكن ماذا؟
- لكن أنتِ تقولين إنَّ عينيهِ زرقاوتين، وأنا عيناي عسليَّتان.
- وماذا إذاً أنا؟
- أنتِ تحبين...
- من أحبُّ أنا؟
- أأقول أم لا؟
- هيا قلّ!
- ولماذا أقول؟
- ماذا بكِ؟
- لا شيء!
- إذاً تكلَّم!
- لا أريد.
- آه!
- ماذا بكِ؟
- ولا شي، سلام.

وأغلقتُ الهاتف.

لا أدري ماذا أقول أو بماذا أشعر أو بِمَ أُفكِّر، لقد توقَّفتُ قليلاً عن الحياة، فجأة اعتلت وجي ابتسامةٌ حزينة، لقد عرفَ بحبِّي لهُ، لكنَّهُ لم يبالِ، بل أخذ هذا الاعتراف كمزحة وسخرية.

حبُّ ستِّ سنوات.

شوقُ ستِّ سنوات.

ألمُ ستِّ سنوات.

بعد ستِّ سنوات.

لهفة، محبَّة، حزن، يأس، أمل لستِّ سنوات، ذهب بالنسبة لهُ كمزحة، كقصَّة قصيرة سخيفة تقف نهايتها على لون العينين «أزرق أم عسليّ».

هل يتَّبع قولَ «أحلام مستغانمي» في رواية «الأسود يليقُ بكِ»: «يُسيء الرجلُ إلى المرأة التي يضمن بقاؤها»؟ ولكن أنا كما قالت «ميمونة العمودي» في كتاب «رعشة الحبِّ الأولى»: «قلبي بذرة ورد، وأرضك لم تكن خصبة»، بل أرضهُ جفَّفت قلبي كأرض قاحلة، كصحراء جامحة، فصارت تقتل البذور، تمتصُّ كلَّ ما فيها من حياة.

هه! يا لها من دعابة سخيفة! كُتبت نهاية قصَّتي قبل أن تبدأ، كجنديٍّ حُفرَ قبرهُ قبل أن يولد. لتذهب الألوان إلى الجحيم وليحيى حبِّي، ليندثر الأزرق في البحر، ويختفي في السماء وليحيى حبِّي. ليحترق العسلي في الأجواء، ولتُعقم النحلات وليحيى حبي. لكنَّ حبِّي مَنْ احترق، استمرَّينا بالمحادثة مع بعض على أنَّنا حبيبان لم يعترفا بالحبِّ لبعضهما أبداً. ولكن حبيبان على الظنِّ والاعتقاد والتخمين فقط. هو قاسٍ في التعامل معي، فهو يعرف أنَّني أموت من الشوق ولا يحدثني لأيام إلاَّ إذا أنا تكلمتُ معهُ على الشابكة، هو من أتباع «أحلام مستغانمي»، تعامل معي بكلِّ رواياتها، مرَّة يتَّبع «الأسود يليق بك»، ومرة أخرى يأخذني بـ«فوضى الحواسّ»: «عكس الناس، كان يريد أن يختبرها لها الإخلاص، أن يجرِّب معها متعة الوفاء عن جوع، أن يربِّي حبَّاً وسط ألغام الحواس» قرح حواسِّي، أعمى عينيَّ، أصمَّ قلبي بحبهِ، وأسجم أذناي، اجتاحتني نوبات «مهنديَّة» كحدود السيف، تُقطِّع منِّي ولا تُبقي من حواسي شيئاً، لم تكن فوضى حواسّ، كان اجتياحاً لها.

لطالما كان يحادث أصدقائه، على النت وأراهُ متَّصلاً «online» ولا يحادثني، وأنا -بصفتي حبيبتهُ- لا يتحدَّث إلاَّ إذا سلَّمتُ أنا، ولا يُكلِّمني إلاَّ إذا تكلمت، وضعي معهُ مقرف بكلِّ معنى الكلمة.

أيُّ حبٍّ لا يُبنى على الاحترام لا يُسمَّى حبَّاً.
أيُّ حبٍّ لا يُبنى على المحبة لا يُسمَّى حبَّاً.
أيُّ حبٍّ لا يُبنى على الشوق لا يُسمَّى حبَّاً.
أيُّ حبٍّ لا يُبنى على المسؤوليَّة لا يُسمَّى حبَّاً.

ففي أيُّ حبٍّ أنا واقعة؟ في حبٍّ خالٍ تماماً من الاحترام والاهتمام والمحبَّة والشوق والمسؤوليَّة. حُبٌّ متناثر مشتَّت، حُبٌّ ضعيف من كلِّ الأطراف، بل يمكنني القول إنَّه أشبه بحبٍّ. لا أزال حمقاء، بعد عدَّة أشهر لم أعرف أنَّهُ أحمق غبيّ لا يكنُّ لي أيَّ شيء، لا حبَّ ولا شوق ولا احترام ولا اهتمام ولا مسؤوليَّة ولا كره حتَّى! بل ولا صداقة، إذاً مَنْ أنا بالنسبة لهُ؟ حبيبة؟ مطلقاً. عشيقة؟ أبداً. صديقة؟ قطعاً أنا لا شيء، فقط مجرَّد فتاة صغيرة بريئة غبية ساذجة لستِّ سنوات غلب عليها العنفوان، وأحبَّت أحمق فاشلاً لستَّة سنوات، وهو عندما عرف بحبِّي لم تتحرَّك مشاعرهُ ولو ستَّة سنتميترات. آهٍ وآسفاه على هذهِ المشاعر التي كانت ستغرق العالم! كانت لتُعلِّم «روميو» و«جولييت» ما هو الحبُّ! لكن قيس كعادتهُ دائماً وحدهُ على حبِّ ليلى ويشكو الليل، وينظمُ الشعر من أجلها، ومن أجمل ما كتب:

فـــؤادي بـــين أضـــلاعي غريـــب ينـــادي مـــن يُجيـــب فـــلا مُجيـــب

لطالما ناديتهُ، لكنَّهُ يبتعد، كلَّما ناديتهُ أكثر ابتعد أكثر، و تُصبح معاملتهُ أقسى، ما هو السبب؟ أنا بحدِّ ذاتي لا أدري، بقيتُ أنظمُ الشعر لهُ وهو كان كاذباً منافقاً يكتبُ الشعر للكلِّ إلاَّ أنا، لم يقل لي أبداً خلال أشهر حديثنا ولا كلمة جميلة حتَّى، كنتُ أنا فقط من أُسمعهُ الشعرَ وأحادثهُ لِأطمئن عليهِ، أنا فقط من تشتاق، وهو يقول إنَّهُ مشغول، مشغول عنِّي فقط، وليس عن العالم، كثيراً ما أراهُ «online» ولا يُحادثني، ويتحجَّج ولا يُجيب. مشغول؟ إذا كان مشغولاً لماذا ينشر منشورات على الـ«facebook»؟ أي ساذجة يحسبني؟ هل ذنبي أنَّني عشقتهُ وبكيتُ من أجلهِ؟ ستُّ سنوات من الصلاة بخشوع و الدعوات بألم أرجو الله بأن يعطيني إيَّاه، أن يحبَّني، يُحادثني أنا فقط. لكنَّهُ خائن لعوب يُسمعني شعر الغزل، وعندما أسأله لمن، وأنا أريد أجابة واحدة فقط «لكِ» لكَّنهُ –وللأسف «ضرب عشرة أُس عشرة»– لم يقلها، ويا ليتهُ فعل. لا، لا أظنُّ أنَّ هذا كان ليكون جيِّداً، لكنتُ ذبتُ حبَّاً بهِ وهو يعاملني بكلِّ لؤم وقسوة. أعشقهُ، فكيف إذا قال لي بيتاً من الشعر؟ كنتُ كقطعة سكر ستذوب في فنجان قهوة مُرَّة المذاق.

بدأ تدريجياً يُقلِّ من محادثتي بكلماتهِ التي أضحتْ كالسُّمِّ في عروقي: «مشغول، مُنهَك، أريد النوم، متعب»، هذهِ مصطلحات لطالما استخدمها هو وغيرهُ من الشباب لخداع الفتيات، لا أدري ماذا أقول؟ أهنَّ ساذجات أم حنونات أم غبيأّت أم عاشقات مجنونات أم مدمنات حبِّهم؟ لكن متى سيفهمون؟

هذا سؤال يوضع تحتهُ ألفٌ وخمسمئة خطٍّ أحمر وعلامتا استفهام ويُحلَّى بإشارة تعجب!

مرَّ شهر كامل لم يحادثني فيه أبداً، وأنا تعمَّدتُ ألاَّ أُراسله، استغربتُ واحترتُ وبدأتُ بمراجعة محادثاتنا السابقة، أنا لم أخطئ بحرف، لكنَّهُ كان قد أخطأ فيّ كلِّي. لم أجرحهُ إلاَّ عندما أغضب من تجاهله أتكلَّم معهُ وأصفهُ بعديم المسؤوليَّة أو السيِّد الفاشل، فيستشيط غضباً منِّي ويجرحني في كلِّ محادثة مئات المرات، فأصبحتُ كأنَّني جسدٌ مُثقلٌ بالجراح، كُلُّ الجراح تُشفى، إلاَّ جراح الحبِّ، ليذهب هو وحبُّهُ البرجوازيُّ الدكتاتوريُّ الهتلريُّ إلى الجحيم!

أحياناً أقول في نفسي: «هل هو يحبني؟ ولكنَّه لم يقلها لي أبداً ولا حتَّى مرَّة، لكنِّي قد قُلتها بكلِّ حرف وبكلِّ كلمة». وأقول: «هل هو عاشق يُحبُّ أن يطهو فريستهُ على نار هادئة؟ هل تُراهُ من أنصار الأسود يليق بك، ويقلِّد الشخصيات؟»، لقد راودني هذا السؤال كثيراً، فقرَّرتُ بعد قطيعة أشهر أن أُبادرهُ وأحادثهُ، كان يوم خميس حوالي الساعة الثامنة والنصف مساءً، اتصلت بالشابكة وكان متَّصلاً، تحرَّشتُ به على الـ«فيسبوك»، لكنَّهُ بدون أن ينطق بحرف ألغى الصداقة، فحادثتهُ على «الواتس آب»:

- مرحباً كيف حالك؟

وبعد ثلاثين دقيقة، تشرَّف وكسر كبريائهُ العاجيَّ وتكلم قائلاً بكلِّ برادة شوق:

- بخير.

ولم يقل غيرها، لم يكلِّف نفسهُ بالسؤال عن قلبي، عن شوقي، عنِّي أنا شخصياً، تداركتُ الموضوع قائلة:

- بخير؟ حسناً.

صمتٌ وصمتٌ وصمتٌ، وبعدها:

- هل أستطيع أن أسألكَ سؤالاً إذا أمكن.

كنتُ أريد أن أصرخ بهِ قائلة: «أي حبٍّ هذا الذي ترتديهِ؟ اخلعهُ بالله عليك! وألبسهُ لشخص يشعر بالبرد! فحبِّي يحترق! وأنت من تصهرني! أيُّ حبٍّ هذا -بالله عليك-

الذي لا يحادثني –كما قالت «فيروز»– كلَّ سنة مرَّة؟ أيُّ حبٍّ هذا –بالله عليك– الذي أتوسَّل فيه كينونتك الحقيرة لأتكلَّم معك فقط، أيُّ أيُّ حبٍّ هذا؟»

- نعم تفضلَّي.
- هل قرأتَ رواية «الأسود يليق بك»؟
- نعم.

لم يسأل لماذا، لأنَّهُ لا يهتم، فقط يقتحم قلبي ويسرق كلَّ ممتلكاتي ويذهب.

- هل أحببتها؟
- نعم.

صمت صمت صمت، أيُّ عجوز أنت؟ تكلَّم! أشعرني بأنَّني أحادث بشراً وليس المجيب الآلي! لطالما كرهتهُ لهذا المجيب، وزاد كرهي، لم يسألني ما الغاية من سؤالي المفاجئ هذا بعد أشهر، لأنَّهُ لا بد يعرف، وبالأحرى تعمَّد.

الحبُّ فعلاً نار حارقة جداً، وأخذت نيران الحبِّ تحرق المجنون وأنا وليلى وهو لا يباليان، لأنَّنا بحبهم احترقنا وأحرقنا كلَّ شيء.

رَبتُ مِن نارِ الهوى ما تنطفي ... نار الغضى وتكلُّ عمّا تحرق

وعذلتُ أهل العشق حتّى ذقتهُ ... فعجبتُ كيف يموت من لا يعشق

كان دائماً ما يبقيني بعيدة عن أسرارهِ، أنا أخبرتهُ كلَّ قصة حياتي ولم يبقَ شيء. لقد سكبتُ في كأسهِ الفارغ كلَّ شيء منِّي حتَّى امتلأ وبدأ يخرج وينسكب من الكأس، هل يجب أن نملأ كأس أحد حتَّى لا يتركنا ويشرب الكأس دفعة واحدة ويذهب؟ هل هذا هو المبدأ: «أن أشرب الخمر بين اثنين أو بين جماعة يسكبون لبعضهم القليل فقط القليل حتَّى يستمرُّوا بالحديث مع بعضهم وقتاً أطول»؟ لكنِّي لم أكن أعرف هذا، فقد سكبت كلَّ شيء دفعة واحدة، حتَّى الطاولة غرقت منها، وبدأت القطرات تتساقط ولوَّثت الأقدام.

هل خطأي أنني انسكبتُ عليهِ؟

هل خطأي أنَّني أعطيتهُ كلَّ شيء؟

هل خطأي أنَّني لم أتجاهلهُ يوماً؟

هل خطأي أنَّني دائماً ما أختلق موضوعاً للحديث معهُ؟

هل خطأي أنَّني صارحتهُ بحبِّي؟

هل خطأي أنَّني أحببتهُ؟

خطأي أنَّهُ أكبر خطأ في حياتي، بل الآن اعتبرهُ خطيئة، فمهما اغتسلتُ لن أتطهَّر منها، حتَّى أمطار العالم لن تستطيع أن تمسح آثار الخطيئة، بل الخطيئة ذاتها من قلبي، لن أتطهر من خطيئة الحبِّ إلاَّ باقتلاع «قلبي».

كان ما يزال يدخل مجموعة «غينيس» في تجاهلي، على هذا الحال سيتبخَّر حبُّهُ لي. لحظة، أنا لم أعرف أكان يحبُّني حقاً أم كان يتسلَّى. لكنَّني مؤمنة بحبِّي لهُ. لقد ضجرتُ من هذهِ الحال «مشغول، يتجاهل، إلى آخره».

أي حبٍّ هذا يسلب مني كرامتي ويدهس عليها؟ آهٍ لقد جعلني أخلع كرامتي بالغصب، وأخذها ومسح بها حذائهُ ورماها في أقرب حاوية موجودة في الطريق، ولو ذهبت وبحثتُ عنها لا بدَّ أن أحبَّها سوداء مدنَّسة به.

هل هجرني! نعم هجرني وما أزال أحسبُ نفسي حبيبتهُ، وهو قد عشق بعدي الكثير. يهجرني ويخونني كلَّ ليلة، عندما أرى «online» ولا يحادثني أسألُ ما السبب، لا أجدُ سبباً أبداً. أنا لم أخضع لكلِّ طالباتهِ، لأنَّهُ لطالما كان يقول لي: «حنان تنفِّذ كلَّ ما أقول، لكن أنتِ لا»، فأقول لهُ: «إذن اذهب إلى حنان تُنفِّذ ما لا أستطيع عليهِ أنا». حنان تكون صديقتهُ المُعجبة بهِ بشدَّة، وربما إحدى ضحاياهُ كما كنت أنا أيضاً.

هل هجرني لأنَّني أحبُّهُ؟ لكنَّني محافظة على تقاليدي، ولم أعطهِ غير كرامتي التي اغتصبها، ولم أعطهِ حقَّ التصرُّف فيَّ، هو متطلِّب كثيراً، وأنا متحفِّظة. هل هذا هو السبب؟ أنا بحدِّ ذاتي لا أعرف، بدأ يتغيَّر بل تغيَّر كثيراً، لدرجة أنَّني لا أتذكَّر متى آخر مرة حادثته فيها، وأنا أخاف محادثتهُ خوفاً من تجاهلي، أستطيع تقبَّل أيَّ شيء إلاَّ إذا تجاهل أحد حديثي. كسرتُ كلَّ بصل العالم في عيني، و كنتُ فقط أكتب وأطلب منهُ أن يقرأ ما كتبتُ ويعطيني رأيهُ، ولم أهتمَّ أبداً لما سيقول، لأنَّه دائماً كان محطِّماً لي، كان فقط يقول: «لا بأس، لا بأس» دائماً ما نقد كتاباتي بهذهِ العبارة فقط، أنا فقط كنتُ أريدُ محادثتهُ ولكنَّهُ لم يأبه، لقد استسلمتُ لحبٍّ ستِّ سنوات، ولا أدري ما هو السبب، ما هو سبب هجرهُ لي؟ هل هو السبب أم حبِّي لهُ؟

لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، مرَّت أكثر من ستَّة أشهر على آخر مرة حادثتهُ، وكانت الحجَّة الأخيرة خاطرة بعنوان: «كان الحبُّ جميلاً» فكانت كلمتهُ المعهودة، رجل الـ«لا بأس».

أتألَّم لرؤيتهُ متَّصلاً ولا يحادثني لو بحرف، لو بكذبة، حتَّى كذبه على قلبي كالسكر، لكنَّهُ رجل النسيان لم يتفوَّه ببنت شفة، هل نسيني؟ حتماً قد فعل، ولكنَّني أردتُ التأكُّد من هذا، أخبرتُ نسرين بالقصَّة لعلَّها تساعدني وتجدُ لي حلاً ما، لأنَّني تقرَّحتُ ألماً بسببهِ وجفَّت دموعي وفُطرَ قلبي، أصبحتُ كشمسٍ باردة المشاعر خالية تماماً كبيت فارغ.

قالت نسرين بعدما حادثتها في حالة مزرية كانت قد لبستني:

- –أعطني رقمهُ وسوف أتظاهر أنَّني قد أخطأت بالرقم، وأنَّني حسبتهُ رقم صديقتي. ما رأيكِ؟

فكَّرتُ قليلاً ومسحتُ ألم دمعة مشرَّبة بالألم، ولكن بعدها وافقت، ليس بيدي حيلة، الحبُّ فقط في قلبي، أعطيتها الرقم، وتحدَّثت نسرين معهُ وعرَّفت عن نفسها باسم «ريم»، وتحدَّثت إليهِ، وكانت المحادثة حارَّة كما أعتقد، بعد حوالي عشرين دقيقة حادثتني نسرين عبر الشابكة وكانت تقول لي كلَّ ما يدور فيها، قالت:

- لقد تحدَّثتُ إليه، وأخبرتهُ أنَّني قد أخطأت، لكنَّهُ لم يصدِّق ويحسبني أكذب، وأخذ يحقِّق معي «اسمي عمري ومن أنا»، ولكنِّي أعطيتهُ كلَّ شيء مستعاراً، الاسم والعمر ومن أكون.
- حسناً تابعي لمدَّة يومين أو ثلاثة.
- حسناً فقط من أجلكِ.
- شكراً.
- «ولو؟»

وبعد يومين من المحادثات مع نسرين، جاءت الطامَّة الكبرى التي قسمتني، اتصلت بي نسرين، وكنتُ أدرس الفيزياء لأن الامتحان تبقَّى عليه أسبوع.

قالت نسرين بخوف:

- كيف حالكِ وهم؟
- –هلا نسرين! بخير. بسرعة ماذا جرى؟
- سألني: «هل لديكِ حبيب؟»، صُدمتُ عندما قال لي هذا، ارتبكتُ ولم أعرف ماذا سأقول، لكنَّني قلتُ: «لا ليس لديَّ».
- وبعدها؟

- سألتهُ السؤال نفسهُ، لكي أعرف إن كان يُحبكِ يا وهم أم «لا».
- ماذا قال؟ هيَّا!
- من الأفضل ألاَّ تعرفي، لا أريد أن أكمل.
- لماذا أرجوكِ؟ ماذا قال؟ أنا أنتظر هذهِ اللحظة منذُ زمن طويل! هيَّا!
- حسناً، لقد قال: «لا ليس لديَّ حبيبة».

اكتمل سكب دلو الثلج على رأسي، وقلت:

- حقاً هذا، كنتُ أتوقَّع هذا. لقد نسيني، بل بالأحرى لم يحبَّني يوماً، إنَّهُ وغد، وهذا بسببي، أعطيتهُ كلَّ الحبِّ الذي يحلم بهِ والكثير، حبّ ستَّة سنوات بعذريَّة باذخة، ولكنَّهُ لم يعترف بي أصلاً.

وآسفاه على هذا الحبِّ الفقير المُشرَّد العذريِّ الذي يشبه حبَّ السيِّدة مريم عليها السلام. وُلِدَ حبِّي وحيداً من دون أب، وسوف يعيش وحيداً، لأنَّ والدهُ هجرهُ. تركهُ ولم يعد يعترف به، بل بالأحرى لم يكن لهُ أب أصلاً.

حبِّي كامرأة عذراء، بقيت تصلِّي في مسجد العشق خاصِّها الذي لا يطأهُ أحد غيرها، مسجد كبير الحجم فيهِ ضوء وحيد، ضوء شمعة تحترق، وتضع يدها حولها تخاف أن تنطفئ، تبقي يديها حولها، تحترق يداها بحرارتها، لكن المهم ألاَّ تنطفئ. ولكن جاءت أخيراً نسمة الرياح بل العاصفة وأطفأت شمعتها وضربتها ككفٍّ على وجهها، أسقطتها أرضاً جاثية على ركبتيها ضعيفة الأفكار خائرة القوة مشتَّتة، يملؤها فقط الفراغ في كلِّ شيء، ولا شيء غيرهُ.

عندما كنتُ صامتة متخدِّرة المشاعر مُقرَّحة مُشتَّتة الأفكار، قاطعتني نسرين قائلة:

- ليس هذا فقط.
- ماذا؟ أكملي أرجوكِ! أخبريني كلَّ شيء!
- حسناً، لكن تمالكي نفسك، هل تعدينني بهذا؟
- نعم حسناً، اكلمي.

أقول لها هذهِ الكلمات، وأنا ذليلة حبهُ، يُقطِّعني رويداً رويداً. هو لا يُدخِّن لكن لطالما احترقتُ بسيجارتهِ، ودائماً يتصاعد منِّي الدخان. دخان عشقي، دخان قلبي، دخان حبِّي المحترق كسيجارة عجوز تحترق ببطء. هو يتمتَّع بي وأنا أحترق. وأكملت نسرين الحديث بتردُّد وصوتٍ خائفٍ من أن يكسر قلبي:

- قال لي: «ليس لدي حبيبة. هل تكونين حبيبتي؟»

صدمتُ، ولم أتفوَّه بكلمة لأنَّ قلبي قد جُرح وامتلأ بالجراح، فلم يعد هناك مكان لجرحٍ آخر، استمرَّ برمي قلبي بسهامهِ، حتَّى لم يتبقَّ مكان لسهم آخر، فمات قلبي على سهمهِ الأخير.

- أكملي نسرين.
- وقال لي: «حتَّى لو كان لديَّ حبيبة، وأنتِ لديكِ حبيب، لماذا لا نكون حبيبين سريين أيضاً؟»، قلتُ لهُ: «ما هذا الكلام الذي تتفوَّه بهِ؟»، قال: «نعم أنا أعني ما أقول، هل تكونين حبيبتي السرية؟ وأنا سأكون حبيبكِ السرِّي. ما رأيكِ؟»، قلتُ له: «من تحسب نفسك حتَّى تقول هذا؟ وإذا لديك حبيبة كيف تخونها بهذهِ الطريقة القذرة؟ سوف أحظر الرقم لأنَّني قلتُ لك إنَّني مخطئة بالرقم. وداعاً»، وقال: «لا لا تفعلي! نصبح صديقين لعلَّكِ تحبينني»، ولكنِّي رفضت، وأغلقتُ الشبكة. وبعد يوم شاهدتُ الرسائل التي وردتني، ولم يكن قد أرسل شيئاً، طبعاً لم أحظر الرقم، فقط هدَّدته لكي أرى ماذا سوف يفعل، وتذكَّرتُ حديثكِ عنهُ بأنَّهُ لا يبدأ بالحديث أبداً مع أيِّ أحد، يحبُّ دائماً أن يشعر بأنَّ الكلَّ يريدهُ ويحتاجهُ، كما قال فهد العودة: «من المؤلم جداً أن تُشعل قلبك شمعة لمن تُحبُّ وهو لا يأخذك على محمل الحبِّ، إنَّها مضيعة للحبِّ والأحلام أن تهتمَّ بإنسان لا يهتمُّ لك». ليس فقط من المؤلم، إنَّها لفاجعة أن تعشق، وتحتسي، وتحترق بحبِّ شخص لستِّ سنوات، ويقابل حبَّك بمزحة سخيفة، هل حبِّي سخيف لهذهِ الدرجة، هل أنا مجرَّد ورقة قِمار؟ هل كنت الورقة الخطأ بالنسبة له فرماني على زاوية الطاولة؟ هل أطاح بحبِّهُ أرضاً متقصداً أشهرُ مُقامر قد عرفهُ تاريخ الحبِّ؟ كلَّ مساء في حانة فتاة جديدة، حبٌّ جديد، يرشفها بكأس رشفةً واحدة، ويخرج إلى حانة أخرى وفتاة أخرى هكذا. لم أعد أُحادثهُ لأنَّهُ لطالما حادثني بأسلوب بارد جافٍّ. حبُّهُ بدم البارد، يحادثني كأنَّني شخص مكروه لهُ، وفي مرَّة شككتُ قبل محادثتي مع نسرين بأنَّهُ يكرهني، فقلتُ لهُ:

- هل تكرهني؟
- أنا؟ لا!

كنتُ أتمنَّى أن أقول لهُ: «إذن أنتَ تحبني»، لكن كيف أقولها بعد كلِّ هذا النفاق والخيانة؟ يدَّعي أنَّني حبيبتهُ التي لم يعترف لها بالحبِّ أبداً، ولكن يدَّعي هذا في محادثتنا فقط، وعندما يخرج من المحادثة يخرج من حبِّي، يُخرجني من قلبهِ، بل لم يدخلني إليهِ قط. هو هاجري تاركي، ولكنَّ قلبي يسكنهُ، والألم والخيبات اللامتناهية تَسمَّى باسمه هو، بقيتُ أتابعهُ أتابع أمورهُ وأحوالهُ بالسرِّ وأتجسَّس عليهِ، واكتشفتُ أنَّ حياته فارغة منِّي كلَّ الفراغ، لم أكن ولن أكون فيها أبداً، اكتشفتُ أنَّهُ رجل العلاقات نت النخب الأوَّل، ماذا أفعل؟ هل أُواجههُ بفعلتهِ هذهِ؟ هل أنتقم لحبِّي الذي مرَّغه بالوحل وررماهُ وراح ماشياً فوقهُ بقدميه الكبيرتين؟ نعم للأسف هذا ما فعلهُ بي.

بعد أشهر مضت على فراقي التعسُّفيِّ قرَّرتُ أن أخونهُ مثلما فعل هو بي، الخيانة في هذهِ الحالة تشبه «العين بالعين والسِّنَّ بالسِّنِّ والبادي أظلم». كالمثل القائل: «الي يخونك تخونو، بس إلي بيظلمك كيف تظلمو»، فقرَّرتُ بداية أن أتعرَّف على أشخاص من مواقع التواصل الاجتماعيِّ لا أعرفهم أهم حقَّاً حقيقيون أم مزيَّفيون. لم يكن يُهمني هذا. فقد اشتعلت في داخلي الرغبة بالخيانة، أخذت تشتعل فيَّ بشدَّة، على قدرِ الحبِّ تكون الخيانة، أحسبُ أنَّني كنتُ أحرق حبَّهُ ولكنِّي للأسف لم أكن أعلم أنَّني أحرق نفسي فقط! هو لم يتأذَّ لأنَّني لم أعد أعنيه، بل أنا لم أعنِهِ يوماً، كنتُ في حياتهِ كعابر حبٍّ تعرَّفتُ من مواقع التواصل الاجتماعي على الكثير وبدأتُ أُحادثهم وأتعرَّف عن حياتهم، كنتُ أتابعهُ على مواقعهِ وأعرف عنهُ كلَّ شيء، أنا غبية جدَّاً! لأنَّني أدور في حلقة مُفرَغة، كلَّما حاولت الهرب منهُ أجدهُ مرَّة أخرى. تعرَّفتُ على شخصٍ وأحبَّ ما أكتب كثيراً، وقال لي بعد أسابيع من صداقتنا:

- وهم، أريد أن أخبركِ شيئاً، هل تسمحين لي؟
- نعم تفضَّل قُلّ.
- أنا أُحبُّكِ.
- ماذا؟ أنا؟
- نعم أنتِ، أرجوكِ لا ترفضي حبِّي لأنَّ قلبي سوف ينفطر.
- ماذا عليَّ أن أفعل؟
- أن تحبينني فقط. أرجوكِ!

- هل الحبُّ هكذا؟ أن تتوسَّل إليَّ لكي أقبل بحبِّك؟
- لا أعرف. اعتبريهِ كما تشائين.
- آه حقاً؟ هذا غريب!
- لكنَّهُ حبّ! ألا تعرفين الحبَّ؟ ألم تجربيهِ أبداً؟
- الحبّ؟

وصمتُ فترة أقول في داخلي: «آهٍ لو تدري ما هو الحبُّ بالنسبة لي، هو حياة متعلِّقة بالموت، هو أغنية لا تفارق فم مغنٍ، هو تسامر عصفورين متحابين، كسرة خبز وجبن، سكِّين يعشقها الطعام رغم أنَّها تؤلمهُ، كحبَّة قهوة تعشق الماء رغم أنذَها ستذوب فيها».

ماذا يسعني أن أقول؟ هل أهجو الحبَّ؟ هل أذمُّه؟ هل أهينهُ مثلما أهانني؟ هل الحبُّ أنانيٌّ لدرجة أنَّ من تحبُّهُ سيستغلُّ حبَّك ويرميك مثل منديل استعملهُ مرَّة واحدة رغم عطره الجميل؟ رغم أنَّه قد مسح القذارة عنك؟ آهٍ ماذا أقول؟ قرَّرتُ أن أقبل حبَّهُ، وأن أُبادرهُ نفس الكلمات. حبّاً لأشهر معدودة لا تتجاوز الشهرين. ادَّعيتُ حبَّهُ وحاولت حبَّهُ، لكنَّ صورة من سكن قلبي في مخيِّلتي، أتخيَّل الكلَّ هو، حتى أنني قد قلتُ لهُ في يوم: «عشقتُ كلَّ رجال العالم، لأنَّني أرى في كلِّ رجل من رجال العالم أنت»، أعجبهُ حينها، فعرف أنَّني غارقة فيهِ حدَّ الارتواء.

في الشهر السادس من عام 2014 كنتُ قد بدأت بالتقدَّم لامتحان الشهادة الثانوية «البكلوريا»، وكنتُ قد درستُ بجدٍّ وألم. انتهينا من الامتحانات، وعدتُ إلى المنزل خائرة القلب والعقل، أتعبتني الدراسة والحبّ، حاولتُ نسيانهُ كثيراً ما حاولت، ولكنَّ كلَّ محاولاتي بائت بالفشل. أصبحت قصَّتي تشبه أغنية «شيماء هلالي»: «حاولت» عندما تقول: «حاولت وحاولت، حاولت أخليه ينساني حصل وها قد نسيني».

- هل تُحبينني؟
- نعم أحبُّك.

قلتها كاذبة، ولو قلتها ألف وألف مرَّة، لأنَّها كلمة تخرج من القلب، وأنا قد تألَّم قلبي، تقرَّح وتشرَّد، أصبح مثل مُهجَّر أُخرج من بلده بالغصب، رُمي في الشارع في الخارج، بلا وطن وبلا أهل وبلا مكان وبلا حبّ. فكيف ينبتُ الحبُّ بقلبٍ من الألم؟

كنتُ طاهرة بحبِّهِ، فأضحيتُ مُدنَّسة بهِ، كنتُ بريئة بعشقهِ، أصبحتُ ماكرة لأجلهِ، كنتُ حنونة رقيقة، أصبحتُ قاسية باردة متبلِّدة المشاعر، أستطيع أن أغوص بك بكلمات من الحبِّ والشعر والعشق وأسلبك عقلك ولا أتأثَّر بك أنا.

هكذا أصبحتُ، كما قال أحد الأدباء: «المرأةُ إذا أحبَّت الرجلَ قلَّدتهُ»، وأنا من غير أن أدري أصبحتُ نسخة عنهُ، أعشق بكذب، أحبُّ بكذب، أُسامر بكذب، أقول «أحبَّك» ألف مرَّة لألف شخص كذباً أيضاً. أنا مثلهُ، أصبحتُ مثلهُ، لم يتركني حبُّهُ إلاَّ وسلب منِّي كلَّ شخصيتي وألبسني نفسهُ أصبحتُ عارية عاطفيَّاً وبسببهِ، وهو ما يزال يرتدي كلَّ يوم معطف حبٍّ جديداً من ماركة جديدة مع فتاة جديدة، ويبدأ بعلاقة حبٍّ ذات معطف فرنسيٍّ فاخر ويُعزِّي فتاة من عاطفتها لأجلهِ. أصبحتُ مثله، أتعرَّف على أشخاصٍ يدَّعون حبِّي وأدَّعي حبَّهم، وأرميهم كما رماني حبِّي الأوَّل، رماني وهجرني بكلِّ وحشية، وبعدها أتعرَّف على رجل جديد وعشق جديد، وأرميه بالوحشية ذاتها أو أشدَّ قليلاً، أُغرم بي كثيرون، ما هو السبب؟ ألديَّ سحر غريب؟ أم لسان جذَّاب؟ أم خيال فتَّان؟ أنا بحدِّ ذاتي لا أعرف السبب! إذا كان الكلُّ يعشقني ويدمنني، إذن لماذا هو لم يعشقني ولم يدمنني ولم يُحبَّني يوماً؟

فجأة جلستُ مع نفسي وفكَّرت بنفسي وشخصيتي وبهِ أيضاً، قلتُ: «من هو ليفعل بي هذا؟ ومن هو حتَّى يشوِّهني هكذا؟ ومن هو حتَّى يجعلني فتاةً سيِّئة؟ أنا التي تعشق المبادئ –وقد تركتُ المعهد وعرَّضتُ دراستي للخطر بسبب المبادئ– شردت لساعات بل استغرقتُ في تفكيري بهذهِ الأشياء لأسابيع، حتَّى قرَّرتُ في الآخر بأنَّني لا بدَّ أن أنساه وأمسحه من حياتي للأبد. حذفتُ رقمهُ ومسحتُ كلَّ الذكريات، وشعرتُ بالتحسُّن قليلاً، وبعد أسابيع شعرتُ أنَّني لم أفكِّر بهِ ولم أشتق له كثيراً، رغم بكائي أحياناً لساعاتٍ تحت الوسادة أُناشد حبَّه وحبِّي وأسأل ربِّي أن يجعلهُ يحبُّني، أن يجعلهُ لي، ولكن من دون فائدة، فللرَّبِّ حكمتهُ الخاصَّة.

مرَّت فترة تناسيتهُ، وكلَّما تناسيتهُ شعرتُ بتحسُّن، فقرَّرتُ أن أقرأ الكتب، أصبحتُ دودة كتب لكي أتناساهُ نهائياً، لكي أقتلعهُ منِّي إلى الأبد، ولأنَّني أحبُّ الكتابة قرَّرتُ أن أكتب قصَّتي معهُ وأسكب كلَّ المشاعر والأحاسيس داخل هذا الدفتر وأغلقهُ إلى الأبد لعلِّي أتخلَّص منهُ. أو ربَّما في يوم يغدو روايةً ذات طابع تراجيديٍّ مليء بالحزن والمشاعر الجيَّاشة وعدم تقدير المحبوب. فأعجبتني الفكرة، وبدأت بتدوين قصَّتي والدموع تنساب شيئاً

فشيئاً مع القلم سطراً بسطر، وفجأة في عصر يوم الأربعاء –الذي دائماً كان جالباً للسعادة لي بحسب توافقهُ الفلكي مع كوكبي عطارد وبرجي «الجوزائيِّ»– رنَّ الهاتف وأنا أكتب فوضعتُ القلم على الصفحة التي كنتُ أدوِّن فيها مشاعري، وأجبت:

- «ألو مرحبا».
- «أهلاً من معي؟»
- أنا سمر! ألم تعرفينني؟
- آه سمر! متى عدتي؟ هذهِ مفاجأة لم أتوقع أنَّكِ هنا، ولم أتوقع اتصالكِ، كيف حالك؟
- أنا بخير اشتقتُ لكِ، لقد عدتُ البارحة أنا ومهنَّد,

سمعتُ اسمهُ، ولكنِّي لم أتأثَّر، لأنَّني ما زلتُ أمسح به، وقد تلاشى في داخلي إلى درجة أنَّه أصبح شخصاً عادياً أو أقلّ، رغم حبِّي القويِّ تجاههُ استطعتُ بإرادتي أن أتغلَّب على كلِّ هذهِ المشاعر، وسأستطيع مسحهُ إلى الأبد.

- آه جيِّد، ماذا تفعلين الآن؟
- لا شيء، هل تأتين لزيارتي مساءً؟ أرجوكِ! لقد اشتقتُ لكِ كثيراً!
- حسناً سوف أرى إن كنتُ أستطيع المجيء، لكنَّني لا أعدكِ بأنَّني سآتي.
- آه أتوسَّل إليكِ أن تأتي! سوف تأتي بعض الصديقات أيضاً. وإذا لم تكوني موجودة لن تصبح الجلسة ممتعة، أنت أصل الجلسة، أرجوكِ وهم! هيَّا قولي إنَّكِ موافقة.
- حسناً، حسناً صدعتني سآتي في السادسة.
- جميل.
- حسناً وداعاً.

وأغلقتُ دفتري وذهبتُ أجهِّز نفسي، وارتديتُ بنطالاً رمادياً وكنزة بيضاء وحملتُ حقيبة بيضاء، ووضعتُ القليل من الكحل، وذهبتُ وقلبي يخفق، استغربتُ، أنا أعرف أنَّ قلبي يتكلَّم إليَّ كثيراً، وفي أغلب الأوقات يخبرني بحدوث أمر أو عدم حدوثهُ، لا أدري ماذا يسمَّى هذا، حاسة سادسة أم قلب حيٍّ؟ على كلِّ حال اسغربتُ وأخبرني قلبي أن شيئاً ما سوف يحدث، فتأهَّبتُ، وأخذتُ لا إرادياً أُردِّد مع المجنون:

وكنــتَ وعــدتني يــا قلــبُ أنّــي إذا مــا تبــتُ عــن ليلــى تتــوبُ
فهــا أنــا تائــبٌ عــن حــبِّ ليلــى فمالــك كلَّمــا ذُكــرت تــذوبُ؟!

وقفتُ أمام الباب الأزرق الذي عندما فُتح لأول مرة كان سبب فاجعتي، قرعتُ الجرس مرتين ووقفتُ بجهة اليسار أنتظر أن تفتح لي سمر الباب، وفجأة خفق قلبي بطريقة جنونيَّة، بحدَّة لم أعدَّها من قبل، وفجأة وفُتح الباب ببطء شديد، ولاحظتُ أنَّ الشخص الذي فتح ليس سمر، فتح كاملاً وإذا بمهند واقفٌ أمامي، حجظت عيناي، لم أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول، كان يرتدي قميصاً أزرق وبنطالاً أسود، كان جذَّاباً كثيراً، لكنَّني تماسكتُ ومسحتهُ مرَّة أخرى، استمرَّيتُ بتجاهل المشاعر المتدفَّقة إلى قلبي إلى أن نفذت، وفجأة تكلَّم هو:

- تفضَّلي.
- مرحباً.
- أهلاً.
- أين سمر؟
- تنتظركِ في الداخل.

ودخلتُ ومن دون أن أنظر في وجهه، تجاهلته تماماً، وهو استغرب من تصرُّفي، وهو الذي يعرف أنَّني غارقة بهِ إلى القاع، لكنَّهُ لم يعرف أنَّ أنثى مثلي ضدَّ الغرق، ضدَّ النسيان، ضدَّ الحياة، أنثى مزاجية ذات طابع جديد، تفعل ما تشاء وتنسى من تشاء وتحبُّ من تشاء. كان على أمل بأنَّني ما زلتُ أحبُّهُ، لأنَّهُ قد ترك حبيبتهُ –بل ضحيَّتهُ– الأخيرة، هجرها وذهب كعادته.

دخلتُ إلى الغرفة، كانت الفتيات مجتمعات ينتظرنني، سلَّمنا على بعضنا، وأخذتنا الأحاديث، كنَّا نتحدث عن الجامعات، وكنتُ قد نجحتُ بمعدل جيِّد جداً وفاضلتُ لدخول كلِّيَّة الهندسة المدنيَّة. مرَّت ساعات الجلسة بالمرح والمزاح وبأجمل الأحاديث كما تفعل الصديقات، وبعد فترة من الزمن بدأنا بالذهاب، وبقيتُ أنا وسمر وحدنا فقلت:

- أريد الذهاب، لا بدَّ أنَّني تأخَّرتُ كثيراً.
- انتظري أرجوكِ.
- لماذا؟
- أريد أن أحادثكِ في موضوع مهمٍّ.

- آسفة، لكن يجب أن أذهب، أخبريني بهِ على الهاتف، وداعاً، قبلاتي.
- لكن لستُ...

وخرجتُ مسرعة إلى البيت بكلِّ برودة أعصاب، لأنَّ قلبي كزهرة سُقيت حتَّى ماتت، ولم تُسقَ حتَّى تعيش!

نعم، مات ما في داخلي عندما نسيتهُ، وأخذتُ حبوباً مانعة لحبِّهِ، كنتُ أشتعل كعنقاء تحترق، وهو بارد كرجل ثلج. نعم، هذهِ الصفات هي من تجعل الحبَّ يختفي، نعم، حان لهذا الحبِّ أن يختفي. جلستُ واتَّصلت بالشابكة لكي أحادث عمِّي في الخارج، وتفاجئت برسالة من سمر كانت قد كتبت: «افتحي الحظر عن رقم مهند، ضروري»، فتحتُ الحظر، فتفاجأتُ برسالة منهُ كتب فيها:

- مرحباً.

لم أجب ولم أردَّ عليه، كنتُ مشغولةً بصراع شخص أحبَّني عبر «النت» وأراد رؤيتي، اتفقنا على الموعد ولم أذهب، وتأخَّرتُ كثيراً وهو بقي ينتظر في المقهى، هاتفني، وقلتُ لهُ إنَّني أشاهد التلفاز، ولم آتِ. احتدَّ النقاش بيننا إلى أن قلتُ لهُ:

- اذهب أنتَ وكلُّ الرجال إلى الجحيم.

وأغلقتُ الخط، وحظرتهُ من قلبي، لحظة! هو لم يدخل حتَّى يخرج! وهكذا انتهيتُ من آخر فريسة. كنتُ أعشقُ الفرائس، وأعذِّبها جداً، بعدما انتهيت عدتُ إلى رسالة من مهند كتب فيها:

- كيف حالكِ؟

استغربتُ، خفق قلبي ولكنِّي صفعتهُ بقوَّة وأخرسته، أجبتُ بكلِّ برود وكأنني أحادث شخصاً برسميَّة جداً، وكأنَّني تعرفتُ عليه للتو لا منذُ ستِّ سنوات، قلت بكلِّ برود:

- الحمد الله.

ولم أسأله عن حالهِ تمويهاً، لأنِّي لا أريد الحديث معه، نعم أنا لا أريدهُ رغم أنَّني حفظتهُ هو ورقمه ومزاجيته ونفسيته المقرفة عن ظهر قلب، عاد وسألني:

- هل من الممكن أن نتحدَّث قليلاً؟

أصبح يحادثني كشخص ذليل، مثلما كنتُ أنا أترجَّاه لكي يتكلَّم، بعد تفكير لمدَّة نصف ساعة بالضبط أجبتُ:

- تفضَّل.

وكان مدَّة نصف الساعة جوابي فرَّد مباشرةً:

- شكراً لكِ.
- عفواً.
- أنا...
- ماذا أنت؟
- لا أعرف ماذا أقول.
- إذاً لا تقل شيئاً.
- ليس الأمر هكذا، لكن...
- ماذا؟

في هذهِ اللحظات دارت الأرض وأصبحتُ أنا متسلِّحة بالبرود بينما كان هو يشتعل.

- أنا أريد أن أحادثكِ في موضوع خاصٍّ يهمُّنا نحن الاثنان.
- نحن؟ خاصّ؟
- نعم، لا أظن أنَّه مناسب على «النت»، هل أستطيع أن أراكِ لمدَّة خمس دقائق؟
- ماذا؟
- نعم، فقط خمس دقائق.

قلتُ بقلبي: «الآن تريد خمس دقائق منِّي؟ وأنت لم تعطني شيئاً، بل أخذت ستَّ سنوات، وبصقتها على الأرض ودست عليها بقسوة، وأنت كنت تدوس قلبي».

- لا أستطيع.
- أرجوكِ، لم أطلب منكِ شيئاً إلاَّ هذا.
- هه؟ ماذا؟

قلت في داخلي: «لم تطلب، وماذا فعلت بي إذاً؟ مزَّقتني ورحلت، وهل تطلب المزيد؟»

- ماذا قلتِ؟ حدِّدي الوقت والمكان وأنا موافق، أرجوكِ!

بعد توسُّلات كثيرة أحاطني بها قلت:

- سأفكِّر وأخبرك.
- نعم، لكن أرجوكِ وافقي.

- سأرى.

وأغلقتُ بكلِّ برود، وذهبتُ للنوم خالية من كلِّ شيء، وفي الصباح هو ينتظر اتصالي، وينتظر لمدَّة ستِّ ساعات متواصلة، وأخيراً اتَّصلت قائلة:

- مرحباً.
- أهلاً.
- الساعة السادسة في حديقة الرشيد.
- حسناً سأكون في الموعد.

كانت الساعة ما تزال الرابعة عصراً، ذهب وتأهَّب وارتدى أجمل الثياب، وكأنَّه سيتوَّج ملكاً، ولا يبدو أنهُ ذاهب للقاء، حان وقت اللقاء، تأخَّرتُ أنا نصف ساعة، وهو قدم قبل نصف ساعة، انتظرني ساعة كاملة، وهو الذي لا ينتظر امرأة حتَّى دقائق، لكنَّني امرأة ضدَّ الوقت والزمان والنسيان. وصلت وأنا مستعجلة، وقفتُ أمامهُ بكلِّ ثقة وجمال:

- ماذا هناك؟ أخبرني.
- اجلسي.
- ليس لديَّ وقت.
- ماذا؟
- نعم لديَّ عمل، تحدَّث بسرعة.
- لكنِّكِ..
- أوه! تحدَّث بسرعة أو انسى الموضوع!
- حسناً وهم، هل تتزوجينني، أحبُّكِ!

صعقتُ، صدمتُ، انهارت قواي، لكنَّني لم أتفوَّه بحرف، قلت بداخلي:

«عفواً؟ تحبُّني؟ متى وأين ومنذُ أي وقت تريدني زوجة؟ لتهجرني في كلِّ ليلة ألف مرة؟ وتحرق قلبي في كلِّ دقيقة ألف ساعة؟ هل أنت مجنون؟ فعلتَ وفعلتَ، وقرحتني وجرحتني، وهجرتني ومزَّقتني ورميتني، ماذا تتوقَّعُ منِّي؟ أيُّ حماقةٍ هذهِ التي تتفوَّه بها؟».

نظرتُ إليه بشفقة وارتديتُ كعبي وأنوثتي ورحلتُ تاركةً ورائي خائناً، ودستُ على ما تبقَّى من حبِّي ذي الستِّ سنوات الذي وأدتهُ حيَّاً عن عمر ستِّ سنوات، دستُ هذا الحبَّ بكعبي العالي، ومشيتُ بأنوثتي وحملتُ حقيبة مشاعري ورميتها بأوَّل حاوية قمامة –بل حماقة– ورحلتُ. وبقي «عدم المشاعر». لا يعلم ماذا يحدث.

قلبي لن يرتكب الحماقات مرَّة أخرى، من الحماقة أن تعشق شخصاً لا تعرفهُ، فيُفجعك قلبك حماقة، هكذا فعل قلبي، ارتكب أكبر حماقة في حياتهِ. لا تحذروا من الحبِّ فهو لا يغدر، لكن احذروا من حماقة قلوبكم والمحبيِّن.